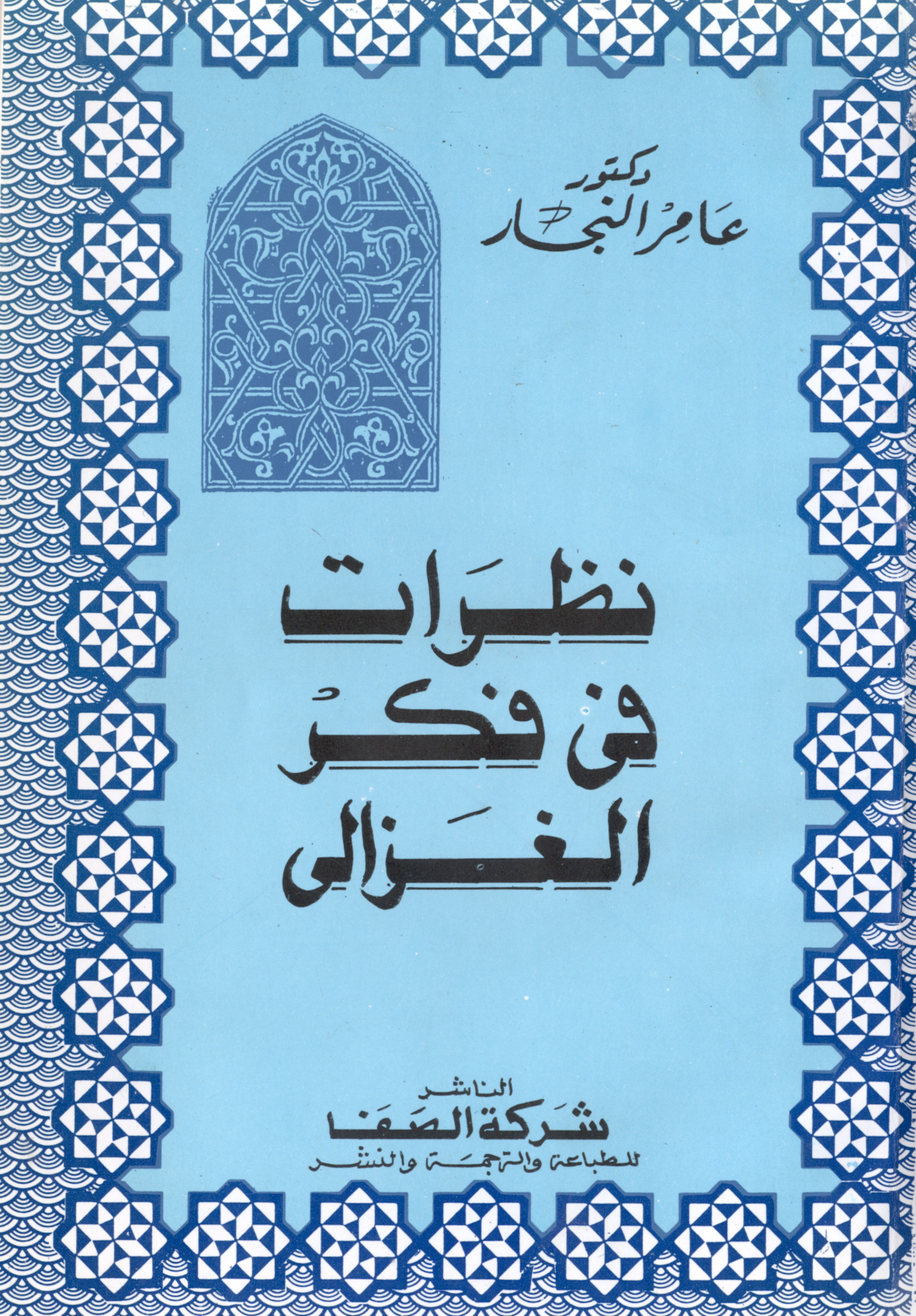

دكتور
عامر النجار
نظرات
فى فكر
الغزالى
الناشر
شركة الصفا
للطباعة والترجمة والنشر

نظرات فى فكر الغزالى

تأليف
دكتور
عامر النجار

الناشر
شركة الصفا
للطباعة والترجمة والنشر
٣٤ شارع عبد الخالق ثروت شقة ١
ت : ٣٩٢٩١٩٨

رقم الايداع ١٩٨٩/٢٧٢١

الإهداء

إلى روح عالمنا الجليل

أستاذنا الإمام الدكتور عبد الحليم محمود

أهدى هذا العمل راجيا من الله تعالى أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم وأن يكون من العلم الذى ينتفع به بعد أن تنقطع الأعمال بالموت اللهم آمين

عامر النجار

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

منذ أكثر من تسعة قرون من الزمان كان مولد الإمام الغزالى رضى الله عنه الذى عاش حياته مفكرا إسلاميا ثرى العطاء ، متوقد الذهن ، أحدث بروحه وعقله ثورة عظيمة فى مجال الفكر الإسلامى والفلسفة والتصوف .

وكان هدفه البحث عن الحقيقة ، ووضح صدقه من خلاله قوله «وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور رأيى وديدنى ، من أول أمرى ، وريعان عمرى . عزيزة وفطرة من الله ، وضعتا فى جبلّتى ، لا باختيار وحيلتى » .

وكان مطلوبه العلم الحقيقى «إنما مطلوبى أن العلم بحقائق الأمور . فلابد من طلب حقيقة العلم . ما هى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا

تسع القلب لتقدير ذلك . بل الأمان من الخطأ نبغى أن يكون مقارنا لليقين ، مقارنة لو تحدى إظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً » .

وهكذا فتح الإمام الغزالى الباب أمام العقل المستنير بروح البصيرة ليصل إلى العلم الصحيح .

وهذه نظرات فى فكر الغزالى عايشتها وعشتها فى رحاب عقل حجة الإسلام . وقد تضمنت هذه النظرات إلقاء الضوء على بعض مؤلفاته وهى "إحياء علوم الدين" و "مشكاة الأنوار" و "كيمياء السعادة" . وبحث مشكلة اليقين عند الغزالى .

هذا .. وبالله التوفيق والسداد .

عامر النجار

«المبحث الأول»

الغزالى وتلاميذه وأهم كتبه

١ تعريف بالغزالى :

الغزالى هو بحق كما وصفه ماكدونالد يُعَدّ من أعرق المفكرين المسلمين أصالة وأعظم المتكلمين المسلمين إطلاقا .

وهو – لاشك عندنا – مجدد القرن الخامس الهجرى بلا منازع .

فإذا كان فى المائة الأولى عمر بن عبد العزيز ، وفى الثانية الشافعى وفى الثالثة الأشعرى ، أو ابن سُرَيج وفى الرابعة الاسفرابينى أو الباقلانى فإن فى الخامسة حجة الإسلام وزين الدين الإمام الغزالى رضى الله عنه .

قال إمام الحرمين عن تلميذه الغزالى «الغزالى بَحْرٌ مغدق»

وقال الإمام «محمد بن يحيى» تلميذ الغزالى : «الغزالى لا يعرف فضله إلا من بلغ ، أو كاد يبلغ الكمال فى عقله» .

وقال ابن النجار عن الغزالى : «إمام الفقهاء على الإطلاق ، وربانى الأمة بالاتفاق ، ومجتهد زمانه ، وعين وقته وأوانه ، ومن شاع ذكره فى البلاد ، واشتهر فضله بين العباد ، واتفقت الطوائف على تبجيله وتعظيمه ، وتوقيره وتكريمه . وخاف المخالفون وانقهر بحججه وأدلته المناظرون ، وظهرت بتنقيحاته فضائح المبتدعة والمخالفين ، وقام بإظهار السنة ونصر الدين ، وسارت مصنفاته فى الدنيا ، مسير الشمس فى البهجة والجمال ، وشهد له المخالف والموافق ، بالتقدم والكمال» .

ومن أفضل من عرفنا بالغزالى عبد الغافر الفارسى خطيب نيسابور وكان من الثقاة المعاصرين وقد ذكر الحافظ أبو القاسم بن عساكر كلام عبد الغافر الفارسى عن الإمام الغزالى فقال : قال : «أبو الحسن عبد الغافر بن اسماعيل الخطيب الفارسى خطيب نيسابور : محمد بن محمد بن محمد : أبو حامد الغزالى ، حجة الاسلام والمسلمين إمام أئمة الدين : «لم تر العيون مثله لسانا وبيانا ، ونطقا وخاطرا ، وذكاء وطبعا ، أخذ طرفا فى صباه «طوس» من الفقه على «الإمام أحمد الراذكانى «ثم قدم «نيسابور» مختلفا الى درس «إمام الحرمين» فى طائفة من الشبان من «طوس» وجد واجتهد ، حتى تخرج فى مدة قريبة ، وبَزّ الأقران ، وحمل القرآن وصار أنظر أهل زمانه وأوحد أقرانه فى أيام «إمام الحرمين» وكان الطلبة يستفيدون منه ، ويدرس لهم ، ويرشدهم ، ويجتهد فى نفسه ، وبلغ الأمر به إلى أن أخذ فى التصنيف .

وكان الإمام مع علوّ درجته ، وسمو عبارته ، وسرعة جريه فى النطق والكلام لا يصغى نظره إلى الغزالى سرا ، لإبانه عليه فى سرعة العبارة ، وقوة الطبع ، ولا يطيب له تصديه للتصانيف ، وان كان متخرجا به ، منتسبا إليه ، كما لا يخفى من طبع البشر ، ولكنه يظهر التبجح به ، والاعتداد بمكانه ظاهرا خلاف ما يضمره ، ثم بقى كذلك انقضاء أيام الامام .

فخرج من «نيسابور» وصار إلى «العسكر» واحتل من «نظام الملك» محل القبول وأقبل عليه «الصاحب» لعلو درجته وظهور اسمه وحسن مناظرته ، وجرى عبارته .

وكانت تلك الحضرة محط رجال العلماء ، ومقصد الأئمة والفصحاء ، فوقعت للغزالى اتفاقات حسنة ، من الاحتكاك بالأئمة وملاقاة الخصوم اللد ، ومناظرة الفحول ومناقدة الكبار ، وظهر اسمه فى

الآفاق ، وارتفق بذلك أكمل الارتفاق ، حتى أدت الحال به إلى أن رسم للمصير الى «بغداد» للقيام بتدريس «المدرسة الميمونة النظامية» بها فصار إليها وأعجب الكل تدريسه ، ومناظرته ، وما لقى مثل نفسه ، وصار بعد امامة «خراسان» امام «العراق» .

ثم نظر فى علم الأصول ، وكان قد أحكمه ، فصنف فيه تصانيف وجدد المذهب فى الفقه فصنف فيه تصانيف ، وسبك الخلاف ، فجدد فيه أيضا تصانيف ، وعلت حشمته ودرجته فى «بغداد» حتى كانت تغلب حشمة الأكابر والأمراء ، ودار الخلافة ، فانقلب الأمر من وجه آخر .

وظهر عليه بعد مطالعة العلوم الدقيقة ، وممارسة الكتب المصنفة فيها ، وسلك طريق الزهد والتأله ، وترك الحشمة ، وطرح ما نال من الدرجة ، للاشتغال بأسباب التقوى ، وزاد الآخرة .

فخرج عما كان فيه ، وقصد بيت الله ، وحج ثم دخل الشام وأقام فى تلك الديار قريبا من عشر سنين يطوف ويزور المشاهد المعظمة ، وأخذ فى التصانيف المشهورة التى لم يسبق اليها ، مثل «احياء علوم الدين» والكتب المختصرة منه ، مثل «الأربعين» وغيرها من الرسائل التى من تأملها علم محل الرجال من فنون العلم .

وأخذ فى مجاهدة النفس ، وتغيير الأخلاق ، وتحسين الشمائل ، وتهذيب المعاش فانقلب شيطان الرعونة ، وطلب الرياسة والجاه ، والتخلق بالأخلاق الذميمة إلى سكون النفس وكرم الأخلاق ، والفراغ عن الرسوم والترتيبات وتزيا بزى الصالحين وقصر الأمل ، ووقف الأوقات على هداية الخلق ، ودعائهم إلى ما يعنيهم من أمر الآخرة وتبغيض الدنيا والاشتغال بها على السالكين ، والاستعداد للرحيل إلى الدار الباقية والانقياد بكل من يتوسم فيه ، أو يشم منه رائحة المعونة أو التيقظ بشئ من أنوار المشاهدة ، حتى مرن على ذلك ولان .

ثم عاد إلى وطنه ، ملازما بيته ، مشتغلا بالتفكير ، ملازما

للوقت ، مقصودا تقيا وذخرا للقلوب ، لكل من يقصده ويدخل عليه إلى أن أتى على ذلك مدة ، وظهرت التصانيف وفشت الكتب ، ولم تبد فى أيامه مناقضة لما كان فيه ، لا إعتراض لأحد على أمره ، حتى انتهت نوبة الوزارة إلى «الأجلّ ، فخر الملك ، جمال الشهداء» تغمده الله برحمته وتزينت «خراسان» بحشمته ودولته .

وقد سمع وتحقق بمكان الغزالي ودرجته ، وكمال فضله وحالته ، وصفاء عقيدته ومعاشرته ، فتبرك به ، وحضره ، وسمع كلامه ، فاستدعى منه أن لا يبقى أنفاسه وفوائده عقيمة ، لا استفادة منها ، ولا اقتباس من أنوارها ، وألح عليه كل الإلحاح ، وشدد فى الاقتراح الى أن أجاب إلى الخروج وحمل الى «نيسابور» وكان الليث غائبا عن عرينه والأمر خافيا فى مستور قضاء الله ومكنونه .

فأشير عليه بالتدريس فى «المدرسة الميمونة النظامية» عمرها الله ، فلم يجد بدا من الإذعان لمولاه ، ونوى إظهار ما اشتغل به هداية السراة ، وإفادة القاصدين دون الرجوع الى ما انخلع عنه ، وتحرر عن رقه من طلب الجاه ، ومماراة الأقران ، ومكابرة المعاندين .

وكم قرع عصاه بالخلاف ، الوقوع فيه ، والطعن فيما بذره ويأتيه و السعاية به والتشنيع عليه ، فما تأثر به ، ولا أشتغل بجواب الطاعنين، ولا أظهر استيحاشا بغميزة المخلطين .

ولقد زرته مرارا ، وما كنت أحدث فى نفسى ما عهدته فى سالف الزمان عليه ، من الزعارة وإيحاش الناس ، والنظر إليهم بعين الإزدراء ، والاستخفاف بهم كبرا وخيلاء ، واغترارا بما رزق من البسطة فى النطق والخاطر والعبارة ، وطلب الجاه والعلو فى المنزلة .

إنه صار على الضد وتصفى عن تلك الكدورات ، وكنت أظن أنه متلفع بجلباب التكلف ، متيمن بما صار إليه .

فتحققت بعد التروى والتنقير أن الأمر على خلاف المظنون ، وأن

الرجل أفاق بعد الجنون .

وحكى لنا فى ليال ، كيفية أحواله ، من ابتداء ما ظهر له من سلوك طريق التأله وغلبة الحال عليه ، بعد تبحره فى العلوم ، واستطالته على الكل بكلامه ، والاستعداد الذى خصه الله به فى تحصيل أنواع العلوم ، وتمكنه من البحث والنظر ، حتى تبرم من الاشتغال بالعلوم العربية عن المعاملة ، وتفكر فى العاقبة ، وما يجدى وما ينفع فى الآخرة .

فابتدأ بصحبة «الفارمدى» وأخذ منه استفتاح الطريقة ، وامتثل ما كان يشير به عليه من القيام يوظائف العبادات ، والامعان فى النوافل ، واستدامة الأذكار ، والجد والاجتهاد طلبا للنجاة ، إلى أن جاز تلك العقبات ، وتكلف تلك المشاق ، وما تحصل على ما كان يطلبه من مقصوده .

ثم حكى أنه راجع العلوم وخاض فى الفنون وعاود الجد والاجتهاد فى كتب العلوم الدقيقة واقتفى تأويلها ، حتى انفتح له أبوابها .

وبقى مدة فى الوقائع ، وتكافؤ الأدلة وأطراف المسائل .

ثم حكى أنه فتح عليه باب من الخوف ، بحيث شغله عن كل شئ ، وحمله على الاعراض عما سواه حتى سهل ذلك ، وهكذا ... وهكذا ... إلى أن ارتاض كل الرياضة وظهرت له الحقائق وصار ما كنا نظن به، تمرسا وتخلقا ، طبعا وتحققا ، وأن ذلك أثر السعادة المقدرة له من الله .

ثم سألناه عن كيفية رغبته في الخروج من بيته ، والرجوع إلى ما دعى إليه من أمر «نيسابور» فقال معتذرا عنه :

(ما كنت أجوز فى دينى ، أن أقف عن الدعوة ، ومنفعة الطالبين بالإفادة ، وقد حق على أن أبوح بالحق ، وأنطق به وأدعو اليه) .

وكان صادقا فى ذلك .

ثم ترك ذلك قبل أن يترك ، وعاد إلى بيته ، واتخذ فى جواره «مدرسة» لطلبة العلم ، «وخانقاه للصوفية» وكان قد وزع أوقاته على وظائف الحاضرين ، من ختم القرآن ، ومجالسة أهل القلوب ، والقعود للتدريس بحيث لا تخلو لحظة من لحظاته ، ولحظات من معه عن فائدة ، إلى أن أصابه عين الزمان ، وضنت به الأيام على أهل عصره فنقله إلى كريم جواره ، بعد مقاساة أنواع من التقصد والمناوأة من الخصوم والسعى به الى الملوك . وكفاه الله وحفظه وصانه من أن تنوشه أيدى المنكبات ، أو ينتهك ستر دينه بشئ من الزلات .

وكانت خاتمة أمره إقباله على حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومجالسة أهله ومطالعة الصحيحين : «البخارى» و«مسلم» اللذين هما حجة الاسلام ، ولو عاش لسبق الكل فى ذلك الفن ، بيسير من الأيام يستفرغه فى تحصيله ، ولا شك أنه سمع الأحاديث فى الأيام الماضية ، واشتغل إلى آخر عمره بسماعها ، ولم تتفق له الرواية .

ولا ضير فما خلفه من الكتب المصنفة فى الأصول والفروع وسائر الأنواع ، تخلد ذكره وتقرر عند المطالعين المستفيدين منها ، أنه لم يخلف مثله بعده .

***

مضى إلى رحمة الله يوم الاثنين الرابع عشر من جمادى الآخرة ، سنة خمس وخمسمائة ودفن بظاهر «قصبة طابران» والله تعالى يخصه بأنواع الكرامة فى آخرته ، كما خصه بفنون العلم فى دنياه ، بمنه .

ولقد كان الغزالى مصلحا اجتماعيا من الدرجة الأولى ، حاول أن يعرف أمراض المجتمع ليصلحها فلقد كانت النفوس خربة والضمائر مفقودة ، والأخلاق معدومة «ففلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلى وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الأوقاف ، وأموال اليتامى ،

وفلان يأكل أدرار السلطان ولا يحترز عن الحرام وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة وهلم جرا إلى أمثاله»(١) وهذا هو الذى دعاه إلى ضرورة نشر العلم بعد إعراضه عن ذلك .

«فانقدح ذلك فى نفسى أن ذلك متعين فى هذا الوقت محتوم ، فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ومرض الأطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك»(٢) .

ونقل فى الشذرات قول الأسنوى فى طبقاته «الغزالى إمام ، باسمه تنشرح الصدور وتحيا النفوس ، وبرسمه تفتخر المحابر ، وتهتز الطروس ، وبسماعه تخضع الأصوات وتخضع الرءوس ، ولما نفد من صديق أبيهما ما خلفه الوالد له ولأخيه أحمد ، وتعذر عليه القوت فقال : لكما أن تلجآ إلى المدرسة ، قال الغزالى ، فصرنا إلى المدرسة نطلب الفقه لتحصيل القوت ، فاشتغل بها مدة ، ثم ارتحل إلى أبى نصر الاسماعيلى بجرجان ثم إلى إمام الحرمين بنيسابور ، فاشتغل عليه ولازمه ، حتى صار أنظر أهل زمانه وجلس للإقراء فى حياة امامه وصنف ، وينسب إليه شعر ، فمن ذلك ما نسبه إليه ابن السمعانى ، فى الذيل ، والعماد الأصبهانى فى الخريدة :

حلت عقارب صدغه فى خده ... قمرا ، فجل به عن التشبيه
ولقد عهدناه يحل ببرجها ... فمن العجائب كيف حلت فيه

وأنشد العماد له أيضا :

هبنى صبوت كما ترون بزعمكم ... وحظيت منه بلثم ثغر أزهر
انى اعتزلت فلا تلوموا أنه ... أضحى يقابلنى بوجه أشعرى

فلما مات إمامه خرج إلى العسكر ، وحضر مجلس نظام الملك ، وكان مجلسه محط رجال العلم ، ومقصد الأئمة ، ومجارات الخصوم

(١) ، (٢) المنقذ من الضلال للغزالى.

اللد ، ومناظرة الفحول ، ومناطحة الكبار ، فأقبل عليه نظام الملك ، وحل منه محلا عظيما ، فعظمت منزلته وطار اسمه فى الآفاق ، وندب للتدريس بنظامية بغداد سنة أربع وثمانين وربعمائة ، فقدمها فى تجمل كبير وتلقاه الناس ونفذت كلمته ، وعظمت حشمته ، حتى غلبت على حشمة الأمراء والوزراء وضرب به المثل ، وشدت إليه الرحال ، إلى أن شرفت نفسه عن رزائل الدنيا فرفضها وأطرحها ، وأقبل على العبادة والسياحة ، فخرج إلى الحجاز ، فى سنة ثمان وثمانين وربعمائة ، فحج ورجع إلى دمشق ، واستوطنها عشر سنين وصنف فيها كتبا ، يقال : ان «الإحياء» منها ، ثم صار إلى القدس والاسكندرية ، ثم عاد الى وطنه بطوس ، مقبلا على التصنيف والعبادة ، وملازمة التلاوة ونشر العلم ، وعدم مخالطة الناس ، ثم ان الوزير فخر الدين ابن نظام الملك حضر إليه وخطبه إلى نظامية نيسابور ، وألح عليه كل الإلحاح ، فأجاب إلى ذلك ، وأقام عليه مدة ، ثم تركه وعاد إلى وطنه ، على ما كان عليه ، وابتنى إلى جواره خانقاة للصوفية ، ومدرسة للمشتغلين ، ولزم الانقطاع ، ووظف أوقاته على وظائف الخير ، بحيث لا يمضى لحظة منها إلا فى طاعة من التلاوة والتدريس ، والنظر فى الأحاديث ، خصوصا البخاري ، وادامة الصيام والتهجد ، ومجالسة أهل القلوب إلى أن انتقل إلى رحمة الله تعالى ، وهو البركة الشاملة ، وروح أهل الإيمان والطريق الموصلة إلى رضا الرحمن ، يتقرب بحبه إلى الله تعالى ، ولا يبغضه إلا ملحد أو زنديق ، وقد أنفرد فى ذلك العصر عن أعلام الزمان (انتهى كلام الأسنوى) .

وكان جريئا فى الحق ، وكلمة صدق قوية تهتز لها عروش الحكام .

وفى رسائل الإمام الغزالى بالفارسية . قال الغزالى : لسنجر ابن ملك شاه السلجوقى حاكم خراسان «أسفا .. إن رقاب المسلمين كادت تنقض بالمصائب والضرائب ، ورقاب خيلك كادت تنقض بالأطواق الذهبية» .

كما كتب لأخيه الأكبر محمد بن ملك شاه رسالة خطيرة قوية حثه فيها على ضرورة الإصلاح ، والخوف من المنتقم الجبار ، يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم البطش العظيم .

ورسالته إلى فخر الملك ضمن رسائله الفارسية رسالة قوية بليغة يقول فيها :

«اعلم أن هذه المدينة (مدينة طوس) أصبحت خرابا بسبب المجاعات والظلم ، ولما بلغ الناس توجهك من «اسفرائين» و «دامغان» خافوا ، وبدأ الفلاحون يبيعون الحبوب ، واعتذر الظالمون إلى المظلومين واستسمحوهم ، لما كانوا يتوقعون من انصاف منك ، واستطلاع للأحوال ونشاط فى الإصلاح . أما وقد وصلت إلى «طوس» ولم ير الناس شيئا فقد زال الخوف وعاد الفلاحون والخبازون إلى ما كانوا عليه من الغلاء الفاحش والإحتكار ، وتشجع الظالمون ، وكل من يخبرك من اخبار هذا البلد بخلاف ذلك ، فاعلم أنه عدو دينك ، وأعلم ان دعاء أهل «طوس» بالخير والشر مجرب ، وقد نصحت للعميد كثيرا ، ولكنه لم يقبل النصيحة ، وأصبح عبرة للعالمين ونكالا للآخرين . اعلم يا فخر الملك ! ان هذه الكلمات لاذعة مرة قاسية لا يجرؤ عليها إلا من قطع أمله عن جميع الملوك والامراء فاقدرها قدرها ، فانك لا تسمعها من غيرى ، وكل من يقول غير ذلك ، فاعلم أن طمعه حجاب بينه وبين كلمة الحق» .

وفى رسائل الامام الغزالى الفارسية يجأر الامام بالشكوى الى الله تعالى «لقد بلغت المدية العظم ، وبلغ السيل الزبى ، وكاد المسلمون يستأصلون ، وان ما قسمه الموظفون من الدنانير على أهل البلد – أمانة من الملك – أخذوا اضعافها من الرعية وانتهبها الظالمون والسفلة من الناس ، ولم يصل منها شئ إلى السلطان» .

وهذا كله يدلنا على مبلغ جرأته فى الحق .

٢ تلاميذ الغزالى :

كانت مدرسة الغزالى الكبرى تضم بين جنباتها عشرات التلاميذ النجباء ، أسماءوهم المضيئة أشرقت فى كتب الطبقات وكتب التأريخ وغيرها من المؤلفات التى تحدثت عن حجة الإسلام الإمام الغزالى رضى الله عنه . كذلك نجد بعض هذه الأسماء الوضيئة فى اتحاف السادة المتقين ، فى شرح إحياء علومالدين «للسيد مرتضى الزبيدى وفى كتاب الدكتور أحمد الرفاعى عن الغزالى .

ومن تلاميذ الغزالى(١) أبو النصر أحمد بن عبدالله ابن عبد الرحمن الخَمْقدىُّ . نسبةً إلىَ بَلَدٍ يُدْعى «خَمْسَ قُدَى» وهو المعروف باسم شيخ ربِّـه ، ولد سَنَةَ ست وستين وأربعمائة وتفقه بطوس على الإمام الغزالى وسمع الحديث من آخرين وتوفى سنة أربع وأربعين وخمسمائة .

ومنهم الإمام أبو الفتح أحمد بن على بن محمد بن برهان الأصولى وكان حنبليا ثم انتقل وتفقه على الشاشى ، وأبى حامد الغزالى والكيا(٢) وكان يَدْرُسُ فى المدرسة النظامية فى أنواع العلوم ، وكان يدرس للطلاب كتاب الأحياء فى نصف الليل ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة ، ووفاته سنة ثمانى عشرة وخمسمائة .

ومنهم أبو منصور محمد بن اسماعيل بن الحسين ابن القاسم العطّارىُّ الطوسى الواعظ الملقب بُجَنْدَة توفى سنة ست وثمانين وأربعمائة ، وتفقه على أبى حامد فى طوس ، وعلى أبى بكر السمعانى فى «مرو» وسمع من البغوى كتبه ، ومن أبى الفتيان الدُّهشتانى الحافظ .

ومنهم الشديد أبو سعيد محمد بن أسعد بن محمد النُّوقانىُّ ، تفقه على أبى حامد ، وقتل فى مشهد على بن موسى الرِّضى فى سنة أربع

(١) الغزالى : جـ٢ للدكتور الرفاعى ص ١٦٩ : ١٧٦ .

(٢) أبو الحسن على بن محمد بن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى الفقيه الشافعى المتوفى سنة ٥٠٤ هجرية والكيا معناه : الكبير القدير المقدم بين الناس .

وخمسين وخمسمائة فى واقعة الثغر .

وأبو عبد الله محمد بن عبدالله بن تومرت المصمودى الملقب بالمهدى صاحب دعوة سلطان المسلمين عبد المؤمن بن على ملك الغرب ، دخل المشرق فتفقه على أبى حامد الغزالى ، وله أخبار طويلة وسيرة مستفاضة .

وأبو حامد محمد بن عبد الملك بن محمد الجَوْزقَانىّ الإسفراينى ، تفقه على الإمام الغزالى ببغداد ، وسمع ابن أبى عبدالله الحميدى الحافظ، لَقِيَهُ ابن السمعانى فى «اسفرايين» موطنه .

وأبو عبدالله محمد بن على بن عبدالله العراقى البغدادى ، تفقه على الغزالى والكيا والشاشى ، وبقى بعد الأربعين وخمسمائة .

وأبو سعيد محمد بن على الجاوانى الكردى ، حدث بكتاب «الجام العوام»للغزالى عنه ، وقرأ المقامات الحريرية على مؤلِّفها .

والإمام أبو سعيد محمد بن يحيى بن منصور النيسابورى ، ولد سنة ست وسبعين وأربعمائة ، وهو من أشهر تلاميذ الغزالى ، تفقه عليه ، وشرح كتابه «البسيط» وسمع الحديث من أبى حامد بن عبدوس ونصر الله الخُشْنانىِ ، وعليه تفقه الموفق الخُوشَانىُّ المدفون تحت رِجْلِ الإمام الشافعى بمصر ، استشهد فى رمضان سنة ثمان وأربعين وخمسمائة فى واقعة الغُزّ .

ومنهم أبو طاهر ابراهيم بن الطُّهْرِ الشيبانى حضر دروس إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى فى نيسابور ، ثم صحب الغزالى ، وسافر معه إلى العراق والحجاز والشام ، ثم عاد إلى موطنه بجرجان وأخذ فى التدريس والوعظ ، وقتل شهيدا سنة ثلاث عشرة وخمسمائة .

ومنهم أبو الفتح نصر بن محمد بن ابراهيم الأذربيجانى المراغى الصوفى ، حكى عن أبى حامد الغزالى وغيره ، وحكى عنه أبو سعد بن

السمعاني قال : سمعت أبا الفتوح نصر بن محمد بن المراغي املاءه بأصل طبرستان يقول : اجتمع الأئمة أبو حامد الغزالي ، واسماعيل الحاكمي ، وابراهيم الشُبّاكِيُّ ، وأبو الحسن البصري ، وجماعة كثيرة من أكابر الغرباء في مهد عيسى عليه السلام ببيت المقدس وأنشد فقال هذين البيتين :

فديتك ، لولا الحب كنت فدينتني

ولكن بسحر المقلتين سَبَيْتَنِي (١)

أتيتك لما ضاق صدري من الهوى

ولو كنت تدري كيف شوقي أتيتني

فتواجد أبو الحسن البصري وَجْدا أثّر في الحاضرين ، فدمعت العيون وَمُزِّقت الجيوب ، وتوفى محمد الكازَرُوني من بين الجماعة في الوجد ، قال المراغي : وكنت معهم حاضرا ذلك .

ومنهم الإمام أبو عبدالله الحسين بن نصر بن محمد بن الحسين الجهني الموصلي تفقه على الغزالي وتوفى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة .

ومنهم خلف بن أحمد النيسابوري ، تفقه على الغزالي ، وله عنه تعليقة ، ذكره ابن الصلاح في «مشكل الوسيط» وقال : بلغني أنه توفى قبل الغزالي .

ومنهم أبو الحسن سعد الخير بن محمد بن سهل ابن سعد الأنصاري البَلَنْسِي المحدث ، أحد السيّاحين ، تفقه ببغداد على الغزالي ، وسمع بها عَن طرّاد وابن البَطِر (٢) وروى عنه السمعاني وابن الجوزي ، وابنته

---

(١) سبيتني : أسرتني .

(٢) هو أبو الخطاب نصر بن أحمد بن عبدالله بن البطر القارئ «المحدث ولد سنة ٣٩٨ وتوفى في ١٦ ربيع الأول سنة ٤٩٤ هـ .

فاطمة بنت سعد ، وتوفى سنة احدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عبدالله شافع بن عبد الرشيد بن القاسم الجيلي ، تفقه على الكيا والغزالي ، وسمع الحديث بالبصرة ، وروى عنه السمعاني ، وتوفى سنة إحدى وأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو عامر دَغَش بن على بن أبي العباس النعيمي الموفقي ، خرج إلى طوس وأقام عند الغزالي مدة ، وأخذ عنه ، وتوفى سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة .

ومنهم الأستاذ أبو طالب عبد الكريم بن على ابن أبي طالب الرازي ، تفقه على الغزالي ببغداد ، وروى عنه أبو النصر الفامي مؤرخ هراة ، وكان أبو طالب يحفظ كتاب "الإحياء" سردا على القلب ، وتوفى "بمرو الروذ" سنة ثمان وعشرين وخمسمائة .

ومنهم الإمام أبو منصور سعيد بن محمد بن عمر ابن منصور الرزاز ، ولد سنة اثنتين وستين وأربعمائة وتفقه على الشاشي والغزالي والمتولى والطبري والكيا ، ودرس في النظامية ، وكانت وفاته سنة ثلاث وخمسمائة .

ومنهم أبو الحسن على بن محمد حمويه الجويني الصوفي ، صحب الإمام الغزالي بطوس وتفقه عليه .

ومنهم أبو محمد صالح بن محمد بن عبدالله حرازم ، لقبه بالقوس ، وصحبه واتفقت له معه غريبة حكاها أحمد بن عبدالله بن القاضي السجلماسي في كتابه «الإصليت» .

ومنهم أبو الحسن على بن المطهر ، بن مكي بن مُقْلاَحي الدينوري ، من كبار تلاميذ الغزالي في الفقه وسمع الحديث من البطِر ، وطبقَته ، وروى عنه ابن عساكر ، وتوفى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة .

ومنهم مروان بن على بن سلامة بن مروان بن عبدالله الطنزي من قرية

بديار بكر ، ورد بغداد وتفقه بها على الغزالى والشاشي ، وروى عنه ابن عساكر توفى بعد الأربعين وخمسمائة .

ومنهم أبو الحسن على بن مسلم بن محمد على السلمى جمال الإسلام ، لازم الغزالى مدة مقامه بدمشق وأخذ عنه ، ويحكى أن الغزالى قال بعد خروجه من الشام خلفت بالشام شابا إ ن عاش كان له شأن – يعنى جمال الإسلام هذا – فكان كما تفرّس فيه .

* * *

ثانيا : من مؤلفات الغزالى

مدخل إلى وسائل البحث عند الغزالى :

قبل أن نتعرف على مؤلفات الغزالى ينبغى أن نتحدث عن وسائل البحث عنده .. والحقيقة انه استخدم في بحوثه وكتاباته وسائل علمية على درجة كبيرة من الأهمية فاستعان بالملاحظة والتأمل الباطنى والتجربة واستبار الناس ، والاستشهاد بالسلف وكان ملما بكل أطراف بحثه عالما بخفايا مشكلاته .. وقد اوضح لنا هذه النقطة الدكتور حسن الساعاتى (١) مستشهداً بنصوص الغزالى نفسه في بيان ذلك .

فمن أمثلة استخدامه الملاحظة المقصودة في البحث قول الغزالى في المنقذ من الضلال فان وقع لك الشك في شخص معين أنه نبى ام لا فلا يحصل اليقين إلاّ بمعرفة أحواله ، إما بالمشاهدة أو بالتواتر والتسامع ، فإنك اذا عرفت الطب والفقه يمكنك ان تعرف الفقهاء والأطباء بمشاهدة أحوالهم وسماع أقوالهم .

وبالنسبة للملاحظة المقيدة وهى المقترنة بالتجربة فيظهر ذلك مثلا من خلال حواره فى «رسالة القسطاس المستقيم» مع رفيق من رفقاء أهل التعليم إذ يقول على لسانه مجيبا عن سؤال : «فمن أين تعلم أن الّميزان صادق ؟ أعلم ذلك علما ضروريا يحصل لى من مقدمتين : إحداهما تجريبية ، والاخرى حسيه . اما التجريبية ، فهى أنى علمت بالتجربة أن الثقيل يهوى الى اسفل ، وأن الاثقل اشد هويا ، والمقدمة الثانية ، هى أن هذا الميزان بعينه رأيته لم تهو إحدى كفتيه بل حاذت الأخرى محاذاة مساواة ، وهذه المقدمة حسية شاهدتها بالبصر » .

أما بالنسبة للتأمل الباطنى فكان ذلك يتم بملاحظة النفس فى

(١) فى بحثه بمهرجان الغزالى بدمشق عام ١٩٦١ بعنوان «المنهج الوضعى عند الغزالى» صفحة ٤٤٣ – ٤٤٨ باختصار .

تقلباتها ومتابعة أحوالها ، والشعور بهواجسها وخطواتها وثباتها وتتبع ذلك بإمعان . . ولقد قدم لنا الغزالى صورة صادقة من التأمل الباطنى الصريح فى منقذه من الضلال حيث يقول : "ثم لاحظت أحوالى ، فإذا أنا منغمس فى العلائق ، وقد احدقت بى من الجوانب ، ولاحظت أعمالى - وأحسنها التدريس والتعليم - فإذا أنا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة فى طريق الآخرة . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت . .

وهذا تأمل باطنى دقيق وملاحظة عميقة للنفس وتتبع عميق لها فى أعمق أعماقها .

وبالنسبة للتجربة فى ميدان العلوم الاجتماعية فهى تعنى ملاحظة السلوك وسط ظروف مدبرة .

ومن هذه التجارب ما ذكره الغزالى فى الاحياء حيث يقول "فإن الإنسان بعد رؤية الشئ يغمض عينه ، فيدرك صورته فى نفسه وهو فى الخيال ، ثم تبقى هذه الصورة معه بسبب شئ يحفظة وهو الجند الحافظة أى "القدرة" ثم يتفكر فيما حفظه فيركب بعض ذلك إلى البعض ، ثم يتذكر ما قد نسيه ويعول إليه ، ثم يجمع جملة معانى المحسوسات فى خياله بالحس المشترك بين المحسوسات ، ففى الباطن حس مشترك ، وتخيل وتفكر ، وتذكر وحفظ .

اما استبار الناس فيظهر فى قول الغزالى " فإنى تتبعت مدة آحاد الخلق . أسأل من يقصر منهم فى متابعة الشرع ، وأسأله عن شبهته وأبحث عن عقيدته وسره ، وقلت له : "مالك تقصر فيها ؟ فإن كنت تؤمن بالآخرة ولست مستعدا لها وتبيعها بالدنيا فهذه حماقة . فإنك لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع مالانهاية له بأيام معدودة ؟ . . فقائل يقول : " هذا أمر لو وجبت المحافظة عليه لكان العلماء أجدر بذلك

وقائل ثان يدعى علم التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغا ترقى عن الحاجة إلى العبادة ! وقائل ثالث يتعلل بِشُبْهةٍ أخرى من شبهات أهل الإباحة .

ونلاحظ أن الغزالى يذكر أراء من سألهم واحدا واحدا ، ثم يُفَنِّد آراءهم ويرد على حججهم الواهية بحجج قوية .

أما مسألة الاستشهاد بالسلف فقد اعتمد عليها من خلال ما تواتر فى بطون كتب التراث من أخبار السلف الصالح ، وتمتلأ كتبه كلها بروائع المواقف العظيمة للقدوة الصالحة من أسلافنا المسلمين .

وهى استشهادات تزيد اليقين وتبين حقائق الأمور .

وبالنسبه للحديث نستطيع أن نقول ان بضاعة الغزالى التى كانت فى الحديث قليلة .. لكنه فى السنوات الاخيرة من حياته اهتم بدراسة الحديث النبوى لمعرفة الحديث الصحيح من الضعيف .

وقد أخذ عليه بعض العلماء أنه ترخص فى النقل والرواية والاحاديث عن النبى والآثار عن الصحابة وأنه لم يكن يعتبر فى بعض المواضع الفاظ الاخيار والآثار لانه لم يكن يهتم بتحرير الالفاظ كما هى

والحقيقة أن بعض العلماء رخصوا فى ذكر الحديث بالمعنى دون النص اللفظى مثل عبد الله بن عباس ، وعلى ابى طالب ، وانس بن مالك ، والشافعى ، وابراهيم النخعى ومجاهد وعكرمة .

وقد ورد في المسألة حديث مرفوع رواه ابن مَنْدَه فى معرفة الصحابة والطبرانى فى الكبير ، من حديث عبد الله بن سليمان بن اكثم الليثى قلت : يا رسول الله انى اذا سمعت منك الحديث لا استطيع ان أرويه كما اسمع منك ، يزيد حرفا او ينقص حرفا ، فقال اذا لم تحلوا حراما ولم تحرموا حلالا وأصبتم المعنى فلا بأس فذكر ذلك للحسن فقال : «لولا هذا ما حدثنا» .

ومع ما أخذ عليه من أنه أورد بعض الاحاديث الضعيفة فى الإحياء

فقد خرجها الحافظ العراقى ، وبين أن أكثر ما قيل فيه عن ايراد احاديث ضعيفة غير مستقيم ، إذ مقصده جميل لا يتعدى حسن ظنه بالذين رووها فى كتبهم من قبله ونقل هو عنهم مثل صاحب قوت القلوب فى معاملة المحبوب «ابو طالب المكى» .

والحقيقة أن الإمام الغزالى رضى الله عنه اهتم بدراسة الحديث فى اخريات حياته وأنه حين عادإلى موطنه "طوس" اجتهد فى دراسة الحديث وقراءته ونسخه ، واستدعى اليه الحافظ ابا الفتيان عمر بن ابى الحسن الرُّوَاسِيّ فأكرمه واغتنم ايامه وسمع منه الصحيحين .

وذكر الحافظ بن عساكر أنه سمع صحيح البخارى عن ابى اسماعيل الحفصى .

من مؤلفات الغزالى :

قال ابن السبكى «له فى المذهب (أى مذهب الشافعى) البسيط والوسيط والوجيز والخلاصة وفى سائر العلوم كتاب إحياء علي الدين ، وكتاب الاربعين ، وكتاب الأسماء الحسنى ، والستصفى فى أصول الفقه ، والمنخول فى اصول الفقه الفه فى حياة استاذه امام الحرمين ، وبداية البداية ، والمآخذ فى الخلافيات ، وتحصين المآخذ ، وكيمياء السعادة بالفارسية والمنقذ من الضلال ، والبيان المنتحل فى الجدل ، وشفاء العليل فى بيان مسائل التعليل ، والاقتصاد فى الاعتقاد ، ومعيار النظر ، ومحل النظر ، وبيان القولين للشافعى ، ومشكاة الانوار ، والمشكاة فى الرد على الباطنية ، وتهافت الفلاسفة والمقاصد فى بيان اعتقاد الاوائل (وهو مقاصد الفلاسفة) ، والجام العوام عن علم الكلام ، والغاية القصوى ، وجواهر القرآن ، وبيان فضائح الامامية ،

والمختصر الاخير ، وكتاب ميزان العمل وكتاب اسرار معاملات الدين .

ونستطيع الان ان نلقى الضوء على بعض مؤلفات الغزالى واهمها :

١- كتاب احياء علوم الدين :

يعد كتاب الاحياء للامام الغزالى من اهم كتب الفكر الاسلامى بما تضمنه من أفكار ثرية وابواب عديدة شملت العبادات والمعاملات والاخلاق والتربية الاسلامية .

وبالرغم مما أخذه عليه ابن تيميه فى فتاويه (١) وابن الجوزى فى المنتظم (٢) الا ان كتاب الاحياء يعتبر جامعة روحية عظيمة يستطيع المسلم من خلالها ان يتعرف على روح الاسلام وجوهر العقيدة الاسلامية الصافى .

وهذا الكتاب تضمن فكر الغزالى الاصيل حتى أننا نستطيع ان نقول بلا تحفظ انه لو ذهب الغزالى وبقى «الاحياء» لأغنى هذا الكتاب عن سائر كتبه فهو كتاب يشيع العلم والنور والايمان والمعرفة ويدعو الى الاخلاق الفاضلة والآداب الحميدة كما يدعو إلى تزكية النفس وترقيتها حتى تصل الى مقام الإحسان .

وقد اختصره الغزالى فى كتب ورسائل عده منها الوجيز والمبسوط

---

(١) فتاوى ابن تيمية جـ ٢ صفحة ١٩٤

(٢) فى المنتظم لابن الجوزى جـ ٩ صفحة ١٦٩ - ١٧٠ طبع دائرة المعارف حيدر أباد وفى كتاب تلبيس ابليس لابن الجوزى انتقد الغزالى وأخذ عليه كثرة الأحاديث الضعيفة . . ومع ذلك فإن تأثير «الإحياء» عليه كان شديدا لدرجة أنه اختصر «الإحياء» فى كتابه المعروف «منهاج القاصدين»

والمرشد الأمين .

يقول الغزالى : .. رأيت الاشتغال بتحرير هذا الكتاب مهما لإحياء علوم الدين ، وكشفا عن مناهج الائمة المتقدمين ، وإيضاحا لمناحى العلوم الناقصة عند النبيين والسلف الصالحين [١] .

والحقيقة ان هناك مؤلفات عدة قبل كتاب الإحياء تضمنت نفس موضوعات الإحياء مثل كتاب «قوت القلوب» لابى طالب المكى الذى استمد منه الغزالى الكثير من الافكار والموضوعات إلا ان كتاب الإحياء تميز عن سائر الكتب التى سبقته فى نفس الموضوعات بأشياء عديدة منها حسن التنظيم والتبويب ، وحسن العبارة وجزالتها ، ويسر الاسلوب وبساطته .

ويقول الغزالى نفسه عن غرضه من وضعه «الاحياء» :

« .. إن الناس من قبله وضعوا كتبا فى مثل كتابه هذا ، ولكنه امتاز (أى امتاز) عنهم بأمور خمسة : وهى : اولا - انه حل ما عقدوه وكشف ما اجملوه ، وثانيا - انـه رتب ما بددوه ونظم ما فرقوه .وثالثا - أنه أجاز (أى : اختصر) ما طولوه ، وضبط ما قرروه ، والرابع - حذف ما كرروه وإثبات ما حرروه ، والخامس - تحقيق امور غامضة ، اعتاصت (أى : صعبت) على الافهام ، ولم يتعرض لها في الكتب مطلقا ، إذ الكل وان تواردوا على منهج واحد فلا مُسْتَنْكَرَ أن ينفرد واحد من السالكين بالتنبيه الى أمر يخصه ويغفل عنه رفقاؤه .

ولقد شغف كثير من العلماء بهذا الكتاب وأعجبوا به إعجابا به شديدا حتى بالغوا فى مدحه والثناء عليه نظرا لتأثيره القوى فى نفوسهم وعقولهم وفكرهم .

يقول الشيخ عبد الغافر الفارسى معاصر الغزالى وزميله فى التلمذة

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ صفحة ٣ طبعة الحلبى .

على إمام الحرمين الجوينى انه من تصانيفه المشهورة التى لم يسبق اليها [١] . ويقول عنه الحافظ العراقى [٢] إنه من أجلً كتب الاسلام [٣] ويقول ابن خلكان وهو من انفس الكتب وأجمعها [٤] .

وقد رد الغزالى بنفسه على اعتراضات أوردها بعض معاصرين على مواضع من الإحياء وذلك فى كتابه الإملاء على مشكل الإحياء [٥] .

ويسمى أيضا "الأجوبة المسكتة عن الاسئلة المبهتة " .

ودافع عن كتاب الاحياء بعض العلماء مثل صاحب «تعريف الاحياء» بفضل الاحياء [٦] .

الشيخ عبد القادر بن عبد الله العبد روسى باعلوى»

ونظرا لاهمية كتاب "الإحياء" فقد شرحه المرتضى فى «اتحاف السادة المتقين» [٧] .

ووضع للإحياء عدة تلخيصات من أهمها «لباب احياء علوم الدين»[٨] لاخ الغزالى احمد الملقب بابى الفتوح احمد بن محمد الغزالى المتوفى بقزوين سنة عشرين وخمسمائه .

(١) كتاب تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر بن شيخ العيدروس صفحة ١٥ .
(٢) هو الحافظ الإمام زين الدين أبو الفضل ، المعروف بالعراقى ، صاحب الألفية فى مصطلح الحديث وهو الذى خَرَّجَ أحاديث الإحياء .
(٣) كتاب تعريف الإحياء . . . صفحة ١٤ .
(٤) وفيات الأعيان جـ ٣ صفحة ٣٥٤ .
(٥) طبع مع كتاب «اتحاف السادة المتقين» للمرتضى طبعة القاهرة ١٣١١ هـ ، وعلى هامش بعض طبعات الإحياء بالقاهرة .
(٦) «تعريف الأحياء بفضل الإحياء» لعبد العيدروس المتوفى سنه ١٠٣٨ هجرية - ١٦٢٨ م وقد طبع هذا الكتاب على هامش بعض طبعات كتاب الإحياء طبعة القاهرة .
(٧) «اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار إحياء علوم الدين لمحمد بن محمد بن الحسين المرتضى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ - ١٧٩١م . وقد طبع فى فاس عام ١٣٠١ هـ - فى ١٣ جزءا ، وفى القاهرة عام ١٣١١ هجرية فى عشرة أجزاء .
(٨) «لباب إحياء علوم الدين» لأحمد الغزالى طبع على هامش كتاب "نزهة الناظرين" لعبد الملك بن المنير تقى الدين البابى الحلبى ١٣٠٨ هـ ، و١٣٢٨ هـ

و«المرشد الأمين إلى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين[1] لجمال محمد بن محمد سعيد بن صالح القاسمى الدمشقى و«صفوة الاحياء» لقراعة [2] .

محتويات كتاب الإحياء :

كتاب الاحياء مؤلف من اربعة اجزاء (العبادات ، والعادات والمهلكات والمنجيات) . وكل قسم من هذه الاقسام مقسم الى عشرة كتب .

والقسم الاول للعبادات وهو ، يشتمل على كتاب العلم وكتاب قواعد العقائد وكتاب أسرار الطهارة ، وكتاب أسرار الصلاة ومهماتها ، وكتاب اسرارالزكاة وكتاب أسرار الصوم ، وكتاب أسرار الحج ، وكتاب آداب تلاوة القرآن ، وكتاب الاذكار والدعوات ، وترتيب الاوراد فى الاوقات . وتفصيل احياء الليل .

ووضع الغزالى قسما للعادات : يشتمل على كتب فى الأكل ، وآداب الزواج واحكام الكسب والمعاش ، والحلال والحرام ، وآداب الصحبة والمعاشرة مع أصناف الخلق ، والعزلة ، وآدابْ السفر ، والسماع ، والوجد ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وآداب المعيشة وأخلاق النبوة .

ووضع الغزالى قسما للمهلكات : ويشتمل على كتب فى شرح عجائب القلب ، ورياضة النفس ، وتهذيب الاخلاق وآفات الشهوتين شهوة البطن وشهوة الفرج ، وآفات اللسان ، وآفات الغضب ، والحقد والحسد ، وذم الدنيا وذم المال والبخل ، وذم الجاه والرياء ، وذم الكبر والعجب وذم الغرور

(1) «المرشد الأمين . . » للقاسمى الدمشقى فى جزءين طبع فى القاهرة ١٣٣١ هـ ، ١٣٤٨ هـ ، ١٩٢٩ م .

(2) «صفوة الإحياء» لمحمود على قراعة -طبع بالقاهرة ١٩٣٥ م .

كذلك وضع الغزالى قسما للمنجيات : ويحتوى على كتب فى التوبة ، والصبر والشكر ، والخوف والرجاء والفقر والزهد والتوحيد والتوكل ، والمحبة والشوق والأُنس والرضا ، والنية والصدق والإخلاص ، والمراقبة والمحاسبة والتفكر وذكر الموت وما بعده .

وحديث عن الصلاة من اروع ما كتب فى هذا الموضوع فقد عرض روح الصلاة الخاشعة المتوجهة الى الله تعالى فى حضور قلب ، وطمأنينة نفس ، ذلك انه فى احياء علوم الدين يهتم اهتماما بالغا باعمال القلب لا اعمال الجوارح فيركز على خفايا ودقائق المعانى واسرارها .

«فاما ربع العبادات فأذكر فيه من خفايا آدابها ودقائق سننها وأسرار معانيها ما يضطر العالم العامل اليه بل لا يكون من علماء الآخرة من لايطلع عليه ، واكثر ذلك مما اهمل فى فن الفقهيات» [1] .

وفى حديثه عن الصلاة يتناول الشروط الباطنة من اعمال القلب ويُبيِّن ارتباط الصلاة بالخشوع وحضور القلب ثم يذكر المعانى الباطنة وحدودها وأسبابها وعلاجها .

ويذكر كذلك تفصيل ما ينبغى أن يحضر فى كل ركن من أركان الصلاة لتكون صالحة لزاد الاخرة .

ويرى الغزالى ان حضور القلب هو روح الصلاة : فالمصلى مناج ربه سبحانه وتعالى والذكر فى الصلاة مع الغفلة ليس بمناجاة .. «ولا يكون نطقا الا اذا اعرب عما فى الضمير ، ولا يكون معربا الا بحضور القلب ،فأى سؤال في قوله (اهدنا الصراط المستقيم) إذا كان القلب غافلا ؟ واذا لم يكن يقصد كونه تضرعا ودعاء فأى مشقة فى تحريك اللسان به مع الغفلة لا سيما بعد الاعتياد .. ولا شك ان المقصود من القراءة والاذكار الحمد والثناء والتضرع والدعاء ، والمخاطب هو الله عز وجل وقلبه بحجاب الغفلة محجوب عنه فلا يراه ولا يشاهده بل هو غافل

(1) الإحياء . . جـ ١ صفحة ٣

عن المخاطب ولسانه يتحرك بحكم العادة فما أبعد هذا عن المقصود بالصلاة التى شرعت لتصقيل القلب وتجديد ذكر الله عز وجل ورسوخ عقد الايمان به» (١) .

ويكاد يبطل الغزالى الصلاة إذا لم يحضرها القلب فهو يشترط حضور القلب شرطا لصحتها مخالفا بذلك اجماع الفقهاء فانهم لم يشترطوا حضور القلب إلا عند التكبير فقط .

ورسول الله صلى عليه وسلم يقول : «إن العبد ليصلى الصلاة لا يكتب له سدسها ولا عشرها وانما يكتب للعبد من صلاته ما عقل منها»(٢).

وحقيقة انه من الصعب على الانسان أن يكون حاضر القلب فى كل صلاة وطوال الصلاة كلها ولهذا يقول :

«وهمة الرجل مع قرة عينه فإن كانت قرة عينه فى الدنيا انصرف لا محالة إليها همه ولكن مع هذا فلا ينبغى أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة فهذا هو الدواء المر ولمرارته استبشعته الطباع وبقيت العلة مزمنة وصار الداء عضالا ، حتى ان الاكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثوا أنفسهم فيها بأمور الدنيا فعجزوا عن ذلك فإذنْ لا مطمع فيه لأمثالنا ، وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس لنكون ممن خلط عملا صالحا وآخر سيئا .

وقد بين الغزالى المعانى الباطنة التى تتم بها حياة الصلاة وجمعها في ست جمل وهى : حضور القلب ، والتفهم ، والتعظيم والهيبة والرجاء والحياء .

وقصد بحضور القلب أن يفرغ القلب عن غير ما هو ملابس له ومتكلم به فيكون العلم بالفعل والقول مقرونا بهما ، ولايكون الفكر

(١) الإحياء حـ ١ ص ١٦٠.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود والنسائى وابن حبان من حديث عمار بن ياسر بنحوه .

جائلا في غيرهما .. ولكن التفهم لمعنى الكلام أمر وراء حضور القلب ، فربما يكون القلب حاضرا مع اللفظ ولا يكون حاضرا مع معنى اللفظ ، فاشتمال القلب على العلم بمعنى اللفظ هو الذى أردناه بالتفهم .

واما التعظيم فهو أمر وراء حضور القلب والفهم اذ الرجل يخاطب عبده بكلام هو حاضر القلب فيه ومتفهم لمعناه ولا يكون معظما له فالتعظيم زائد عليهما .

واما الهيبة فزائدة على التعظيم ، والهيبة خوف مصدرها الإجلال ، واما الرجاء فلا شك أنه زائد ... والعبد ينبغى ان يكون راجيا بصلاته ثواب الله عز وجل كما أنه خائف بتقصيره عقاب الله عز وجلّ ، وأما الحياء فهو زائد على الجملة لأن مستنده استشعار وتوهم ذنب ولا يتصور التعظيم والخوف والرجاء من غير حياء حيث لا يكون توهم تقصير وارتكاب ذنب .

«ولكل درجات مما عملوا» فحظ كل واحد من صلاته بقدر خوفه وخشوعه وتعظيمه فإن موقع نظر الله سبحانه القلوب دون ظاهر الحركات ، ولذلك قال بعض الصحابة رضى الله عنهم : يحشر الناس يوم القيامة على مثال هيئتهم في الصلاة من الطمأنينة والهدوء ومن وجود النعيم بها واللذة ، ولقد صدق فإنه يحشر كل على ما مات عليه ويموت عليه على ما عاش عليه ، ويراعى في ذلك حال قلبه لا حال شخصه فمن صفات القلوب تصاغ الصور في الدار الآخرة ولا ينجو إلاّ من أتى الله بقلب سليم»(١).

ويبين لنا الغزالى الدواء الناجع في حضور القلب ، ودفع الخواطر التى تشغل الإنسان أثناء صلاته ويقول «وسبب موارد الخواطر إما ان يكون أمرا خارجا أو أمرا في ذاته باطنا .

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر فإن ذلك قد يختطف

(١) الإحياء حـ ١ صفحة ١٦١ : ١٦٣ .

الهَم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم تَنجَرُّ الفكرة إلى غيره ويتسلسل ، ويكون الإبصار سببا للإفتكار ، ثم تصير بعض تلك الافكار سببا للبعض ، ومن قويت نيته وعلت همته لم يلهه ما جرى على حواسه ولكن الضعيف فلابد وأن يتفرّق به فكره ، وعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلى في بيت مظلم أولا يترك بين يديه ما يشغل حسه ويقرب من حائط عند صلاته حتى لاتتسع مسافة بصره ، ويحترز من الصلاة على الشوارع وفى المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المصبوغة ... وأما الاسباب الباطنة فهى اشد ، ويعينه على ذلك ان يستعد له قبل التحريم بأن يجدد علي نفسه ذكر الآخرة وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدى الله سبحانه وهو المطلع ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمه فلايترك لنفسه شغلا يلتفت إليه خاطره »(١) .

هكذا نلاحظ النظرة النفسية العميقة داخل عقل المصلى يقدمها لنا الغزالى فإنه يبين أثر قوة تداعى أفكار المصلى من خلال نوافذ البصر والسمع اللذان يؤديان إلى انشغال العقل وعدم حضور القلب وغفلته ، ثم بيبن لنا أن غض البصر وكفه في أثناء الصلاة أو الصلاة في الظلام حيث أن الاضواء المبهرة قد تساعد على شغل النفس بها كما أن الصلاة على السجاجيد المزركشة والملونة قد يشغل الإنسان عن روح الصلاة .

ولقد كان الغزالى رائدا في هذه النظرة النفسية العميقة حين اشار إلى العوامل الخارجية التى تساعد على عدم حضور القلب في الصلاة والعوامل الداخلية ويعنى بها انشغال الانسان بهمومه الجوانية والبرانية عن حقيقة روح الصلاة .

وكان اهتمام الغزالى كبيرا ب«علم القلوب» وسماه «علم الآخره» في مقابل «علم الدنيا» وسماه «علم اليقين» كذلك .

وهو لم يجرح على الإطلاق الفقهاء الأربعة فهم في نظره علماء

(١) الإحياء ﺣ ١ ص ١٦٣ و ص ١٦٤ .

بالآخرة بالإضافة إلى علمهم بالفقه .

وإنما نقد من أتى بعدهم ممن اقتدى بفقههم وحده دون علمهم فيقول «ما ذكرناه ليس طعنا فيهم (أي في الائمة) بل هو طعن فيمن أظهر الاقتداء بهم منتحلا مذاهبهم وهو مخالف لهم في أعمالهم وسيرهم»(١).

ويعتبر الغزالى أن من أهم وظائف الفقه الدنيوية ، وظيفته السياسية والحياتية فنتيجة لتنازع الشهوات كما يقول الامام الغزالى تولدت الخصومات بين الناس «فمست الحاجة إلى سلطان يسوسهم واحتاج السلطان إلى قانون يسوسهم به ، فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق اذا تنازعوا بحكم الشهوات فكان الفقيه معلم السلطان ومرشده إلى طريق سياسة الخلق وضبطهم لتنتظم باستقامتهم أمور الدنيا .

وكما ان سياسة الخلق بالسلطة ليس من علم الدين في الدرجة الاولى .. فكذلك معرفة طريق السياسة (أي الفقه) .. وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة » (٢).

فالفقه يهتم بالامور الظاهرة للعبادات فيحكم الفقيه بصحة الإسلام باللسان تحت ظلال السيوف دون القلب مع أنه يعلم أن السيف لم يظهر له حقيقة نيته وسر طويته ويقول في ذلك (اعلم ان اقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الاعمال التى هي من أعمال الآخرة ثلاثة : الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام) .

فاذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها علمت أنه لايجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة ، واذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر ، أما الإسلام فيتكلم الفقيه فيما يصح منه وفيما يفسد وفي شروطه وليس يلتفت فيه الى اللسان ، وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه لعزل رسول

(١) الإحياء : ﺣ ١ صفحة ٢٤ .
(٢) إحياء ج ١ ص ١٧ وص ١٨ .

الله صلى الله عليه وسلم أرباب السيوف والسلطنه عنه حيث قال «هلا شققت عن قلبه»(١) للذى قتل من تكلم بكلمة الاسلام معتذرا بأنه قال ذلك من خوف السيف ، بل يحكم الفقيه بصحة الإسلام تحت ظلال السيوف ، مع أنه يعلم أن السيف لم يكشف له عن نيته ولم يدفع عن قلبه غشاوة الجهل والحيرة ، ولكنه مشير على صاحب السيف فإن السيف ممتد إلى ماله وهذه الكلمة باللسان تقصم رقبته وماله ما دام له رقبة ومال ، وذلك في الدنيا ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله الا الله فإن قالوها فقد عصموا منى دماءهم وأموالهم» (٢) ، واما الاخرة فلا تنفع فيها الاموال بل انوار القلوب واسرارها واخلاصها وليس ذلك من الفقه (٣)

إما الآخرة فموضوع علماء الآخرة .. علماء القلوب والمعاملة والمكاشفة إنهم أصحاب علم اليقين ولعل أهم صفة لعالم الاخرة «ان يكون شديد العناية بتقوية اليقين فإن اليقين هو رأس مال الدين» ..(٤) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «اليقين الايمان كله»(٥).

موقف الغزالى من العلماء ورجال الدين :

يرى الغزالى أن فساد الشعوب والأمم يقع في المقام الاول على العلماء ورجال الدين ، لان العلماء ملح الامة ، واذا فسد الملح فما الذى يصلحه .

يا معشر القراء يا ملح البلد .·. ما يصلح الملح اذا الملح فسد

ويرجع الغزالى فساد الحكام والملوك والعمال والرعية إلى سوء العلماء والقضاة وفسادهم يقول : «بالجملة إنما فسدت الرعية بفساد

(١) أخرجه مسلم من حديث أسامة بن زيد
(٢) متفق عليه من حديث أبى هريرة وعمرو وابن عمر .
(٣) الإحياء صفحة ١٨ جـ ١
(٤) الإحياء جـ ١ صفحة ٧٢ .
(٥) أخرجه البيهقى فى الزهد والخطيب فى التاريخ من حديث ابن مسعود بإسناد حسن .

الملوك ، وفساد الملوك لفساد العلماء ، فلولا القضاة السوء والعلماء السوء لقل فساد الملوك ، خوفا من انكارهم» (١).

ويقرع الغزالى ويفضح العلماء الذين يتقاعسون عن أداء فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ونصح الحكام وتوجيههم ، ويوبخهم أشد التوبيخ ويبين أنهم وقعوا في حب الدنيا وطلب المنزلة الرفيعة والجاه والشهرة ونظروا إلى عطاء الملوك والأمراء ونسوا أن الله تعالى هو الرزاق وأن العطاء عطاؤه ، وأن الأعمار بيده لا بيد الحكام والملوك ، وبعد أن يقدم قصصا من التاريخ الإسلامى تبين شجاعة علماء السلف وقولهم كلمة الحق في وجه الحكام والملوك دون خشيتهم يقول :

«وأما الآن فقد قيدت الأطماع ألسن العلماء فسكتوا ، وإن تكلموا لم تساعد أقوالهم أحوالهم فلم ينجحوا ، ولو صدقوا وقصدوا حق العلم لأفلحوا ففساد الرعايا بفساد الملوك ، وفساد الملوك بفساد العلماء ، وفساد العلماء باستيلاء حب المال والجاه ، ومن استولى عليه حب الدنيا لم يقدر على الحسبة على الارازل ، فكيف على الملوك والأكابر ؟ والله المستعان على كل حال . (٢)

ان الغزالى وضع اصبعه على أحد اسرار فساد الشعوب والامم .. انهم العلماء حين يستولى عليهم حب المال والجاه والدنيا والطمع فيما في أيدى الناس والحكام .. حين ينشغلون عن الامر بالمعروف والنهى عن المنكر الى الانشغال بالامور الحياتيه .. وبدلا من الخوف من الله خافوا من الناس ، وسطوة الحكام ، فظلموا الناس وظلموا انفسهم وافسدوا الملوك والرعية ، فالتبعة في ذلك تقع على علماء الدين لانهم ملح الامة ، واذا فسد الملح فما الذى يصلحه .

ويهتم الغزالى بالعمل والسلوك بالنسبة للعالم فينبغى أن لايخالف

(١) الإحياء جـ ٢ ص ١٣٢ .
(٢) الإحياء جـ ٣ ص ١٢ .

فعله قوله بل لا يأمر بالشيء ما لم يكن هو اول عامل به ، قال «أتأمرون الناس بالبر وتنسون انفسكم» وقال تعالى : «كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون» ، وقال ابو الدرداء رضى الله عنه : ويل لمن لا يعلم مرة وويل لمن يعلم ولا يعمل سبع مرات .

وصدق من أنشد :

يا واعظ الناس قد اصبحت متهما .·. اذعبتَ منهم أموراً أنت تأتيها

أصبحت تنصحهم بالوعظ مجتهدا .·. فالموبقات لعمرى أنت جانبها

تعيب دنيا وناسا راغبين لها .·. وأنت أكثر منهم رغبةً فيها

وقال آخر :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله .·. عار عليك إذا فعلت عظيم

والغزالى يرى أن من أهم آفات علماء السوء إتيان العلماء الأمراء والحكام ، ويستشهد في ذلك بطائفة من أقوال الصالحين ويعلق عليها فيقول : قال ابو ذر لسلمة : يا سلمة لا تغش أبواب السلاطين فإنك لا تصيب شيئا من دنياهم إلا أصابوا من دينك أفضل منه ، وهذه فتنه عظيمة للعلماء وذريعة صعبة للشيطان عليهم لا سيما من له لهجة مقبولة وكلام حلو ، إذا لا يزال الشيطان يلقى اليه : أن في وعظك لهم ودخولك عليهم ما يزجرهم عن الظلم ويقيم شعائر الشرع إلى أن يخيل إليه ان الدخول عليهم من الدين ، ثم اذا دخل لم يلبث أن يتلطف في الكلام ويداهن ويخوض في الثناء والاطراء وفيه هلاك الدين .

وكان يقال : العلماء إذا علموا عملوا فإذا عملوا شغلوا فإذا شغلوا فقدوا فإذا فقدوا طلبوا فاذا طلبوا هربوا .(١)

كذلك يرى الغزالى أن من آفات علماء السوء المسارعة إلى الفتيا والاجابة دون تحقيق أو روية على كل استفسار خشية أن يتهم بالجهل

(١) الإحياء جـ ١ ص ٦٩ .

وعدم المعرفة .. يقول لغزالى «.. منها ان لا يكون مسارعا إلى الفتيا بل يكون متوقفا ومتحرزا ما وجد الى الخلاص سبيلا ، فإن سئل عما يعلمه تحقيقا بنص كتاب الله أو بنص حديث أو اجماع أو قياس جلى أفتى ، وإن سئل عما يشك فيه قال : لا أدرى وان سئل عما يطنه باجتهاد وتخمين احتاط ودفع عن نفسه وأحال على غيره إن كان في غيره غنية هذا هو الحزم لان تقلد خطر الاجتهاد عظيم وفي الخبر العلم ثلاثة : كتاب ناطق ، وسنة قائمة ، ولاأدرى(١) قال الشعبى لا أدرى نصف العلم ، ومن سكت حيث لا يدرى لله تعالى فليس بأقل أجرا ممن نطق لان الاعتراف بالجهل أشد على النفس فهكذا كانت عادة الصحابة والسلف رضى الله عنهم»(٢)

ويقول الغزالى : كان ابن عمر رضى الله عنهما يسئل عن عشر مسائل فيجيب عن واحدة ويسكت عن تسع وكان ابن عباس رضى الله عنهما يُسئل عن عشر مسائل فيجيب عن تسع ويسكت عن واحدة ، وكان في الفقهاء من يقول «لا أدرى» أكثر ممن يقول «أدرى» منهم سفيان الثورى ومالك بن أنس وأحمد بن حنبل والفضيل بن عياض وبشر بن الحرث»(٣).

وكان بعض العلماء يحللون أخذهم عطايا الامراء والحكام بقولهم ان كثيرا من السلف والتابعين قبلوا أموال وهبات وعطايا الأمراء .

ولكن الغزالى يبين مدى اجتراء هؤلاء العلماء على الحق وكشف مدى ضلالهم وخبثهم ويفضح قياسهم الخاطىء حين يقول .. إن الظلمة في العصر الاول لقرب عهدهم بزمان الخلفاء الراشدين – كانوا مستشعرين من ظلمهم ، ومتشوقين إلى استمالة قلوب الصحابة

(١) أخرجه الخطيب فى أسماء من روى عن مالك موقوفا على ابن عمر ، ولأبى داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن عمر مرفوعا نحوه مع اختلاف .

(٢) الإحياء جـ ١ ص ٧٠ .

(٣) الإحياء جـ ١ ص ٧٠ .

والتابعين ، وحريصين على قبولهم عطاياهم ،جوائزهم وكانوا يبعثون
إليهم من غير سؤال وإذلال ، بل كانوا يتقلدون المنّة بقبولهم ويفرحون
به ، وكانوا يأخذون منهم ويفرقون ، ولايطيعون السلاطين في اغراضهم
ولا يغشون مجالسهم ، ولايكثرون جمعهم ، ولايحبون بقاءهم ، بل
يدعون عليهم ويطلقون اللسان ، وينكرون المنكرات منهم عليهم ، فما
كان يحذر أن يصيبوا من دينهم بقدر ما أصابوا من دنياهم ، ولم يكن
يأخذهم بأس .

فأما الآن ، فلا تسمع نفوس السلاطين بعطية إلا لمن طمعوا في
استخدامهم والتكثر بهم ، والاستعانة بهم على أغراضهم ، والتجمل
بغشيان مجالسهم ، وتكليفهم المواظبة على الدعاء والثناء ، والتزكية
والإطراء في حضورهم ومغيبهم فلو لم يذل الآخذ نفسه بالسؤال أولا ،
والتردد في الخدمة ثانيا والثناء والدعاء ثالثا ، والمساعدة له على
أغراضه عند الاستعانة رابعا وبتكثير جمعه في مجلسه وموكبه خامسا
، وباظهار الحب والموالاة والمناصرة له على أعدائه سادسا ، وبالستر على
ظلمه ومقابحه ومساوىء أعماله سابعا ، لم ينعم عليه بدرهم واحد ولو
كان في فضل الشافعي رحمه الله مثلا ، فإذا لا يجوز أن يؤخذ منهم
في هذا الزمان ما يعلم انه حرام أو يشك فيه ، فمن استجرأ على
أموالهم وشبه نفسه بالصحابة والتابعين ، فقد قاس الملائكة
بالحدادين(١) .

وهذه صرخة حق مدوية يعلنها الغزالى في وجه كل حاكم ظالم وكل
عالم مداهن منافق يتكسب من هؤلاء الحكام الظلمة .. بل أكثر من ذلك
فإن الغزالى يطالب العلماء ببغض الظلمة وكراهية بقائهم واعتزال
المتقربين إليهم والمتصلين بهم (.... فعليه أن يعتقد بغضهم على ظلمهم
ولا يحب بقاءهم ، ولا يثنى عليهم ، ولا يستخبر عن أحوالهم ،

(١) الإحياء جـ ٢ ص ١٢٢ و ص ١٢٣ .

ولايتقرب إلى المتصلين بهم (١) .

ويضرب الغزالى أمثلة ونماذج قدوة من العلماء الراشدين مثل
المُحدِّث الفقيه سفيان الثورى وما حدث له مع هارون الرشيد ، فعن أبى
عمران الجونى(٢) قال : لما ولى هارون الرشيد الخلافة زاره العلماء
فهنوه بما صار إليه من أمر الخلافة ففتح بيوت الاموال واقبل يجيزهم
بالجوائز السنية ، وكان قبل ذلك يجالس العلماء والزهاد ، وكان يظهر
النسك والتقشف ، وكان مؤاخيا لسفيان بن سعيد بن المنذر الثورى قديما
فهجره سفيان ولم يزره ، فاشتاق هارون إلى زيارته ليخلوا به ويحدثه فلم
يزره ولم يعبأ بموضعه ولا بما صار إليه ، فاشتد ذلك على هارون فكتب
إليه كتابا يقول فيه : بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله هارون الرشيد
أمير المؤمنين إلى أخيه سفيان بن سعيد بن المنذر أما بعد ، يا أخى قد
علمت أن الله تبارك وتعالى آخى بين المؤمنين وجعل ذلك فيه وله واعلم
انى قد واخيتك مواخاة لم أصرم بها حبلك ولم أقطع منها ودك وانى
منطولك على أفضل المحبة والإرادة ، ولولا هذه القلادة التى قلدينها الله
لأتيتك ولو حبوا لما أجد لك في قلبى من المحبة واعلم يا أبا عبد الله انه
ما بقى من اخوانى وأخوانك أحد إلا وقد زارنى وهنأنى بما صرت إليه
وقد فتحت بيوت الاموال واعطيتهم من الجوائز السنية ما فرحت به
نَفْسى وقرت به عينى وانى استبطأتك فلم تأتنى ، وقد كتبت لك كتابا
شوقاً منى إليك شديدا ، وقد علمت يا أبا عبد الله ما جاء في فضل
المؤمن وزيارته ومواصلته فإذا ورد عليك كتابى فالعجل العجل ، فلما
كتب الكتاب التفت الى من عنده فإذا كلهم يعرفون سفيان الثورى
وخشونته فقال :على برَجُلٍ من الباب ، فأدخل عليه رجل يقال له عباد
الطالقانى ،فقال : يا عباد خذ كتابى هذا فانطلق به إلى الكوفة فإذا
دخلتها فسل عن قبيلة بنى ثور ، ثم سل عن سفيان الثورى فإذا رأيته
فالق كتابى هذا إليه وع بسمعك وقلبك جميع ما يقول فأحص عليه دقيق

(١) الإحياء جـ ٢ ص ١٢٨ .
(٢) الإحياء جـ ٢ ص ٣٥٣ - ص ٢٥٥ .

أمره وجليله لتخبرنى به . فأخذ عباد الكتاب، وانطلق به حتى ورد
الكوفة فسأل عن القبيلة فأرشد اليها ثم سأل عن سفيان فقيل له هو في
المسجد قال عباد : فأقبلت إلى المسجد فلما رآنى قام قائما وقال :
أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم وأعذ بك اللهم من طارق
يطرق إلا بخير . قال عباد : فوقعت الكلمة في قلبى فجرحت ، فلما
رآنى نزلت بباب المسجد قام يصلى ولم يكن وقت صلاة ، فربطت فرسى
بباب المسجد ودخلت فإذا جلساؤه قعود قد نكسوا رؤوسهم كأنهم
لصوص قد ورد عليهم السلطان فهم خائفون من عقوبته ، فسلمت فما
رفع أحد إلى رأسه وردوا السلام على برءوس الأصابع ، فبقيت واقفا
فما منهم أحد يعرض على الجلوس وقد علانى من هيبتهم الرعدة ومددت
عينى إليهم فقلت ان المصلى هو سفيان فرميته بالكتاب إليه ، فلما رأى
الكتاب ارتعد وتباعد منه كأنه حية عرضت له في محرابه فركع وسجد
وسلم وأدخل يده في كمه ولفها بعباءته واخذه فقلبه بيده ثم رماه إلى من
كان خلفه وقال : يأخذه بعضكم يقرؤه فإنى استغفر الله أن أمس شيئا
مسه ظالم بيده ، قال عباد : فأخذه بعضهم فَحَلّه كأنه خائف من فم حية
تنهشه ، ثم فضه وقرأه ، وأقبل سفيان يتبسم تبسم المتعجب فلما فرغ
من قراءته قال : اقلبوه واكتبوا إلى الظالم في ظهر كتابه ، فقيل له :
يا ابا عبد الله أنه خليفة فلو كتبت إليه في قرطاس نقى ، فقال : اكتبوا
إلى الظالم في ظهر كتابه فإن كان اكتسبه من حلال فسوف يجزي به ،
وإن كان اكتسبه من حرام فسوف يصلى به ولا يبقى شىء مسه ظالم
عندنا فيفسد علينا ديننا ، فقيل له : ما نكتب ؟ فقال اكتبوا : بسم الله
الرحمن الرحيم ، من العبد المذنب سفيان بن سعيد بن المنذر الثورى إلى
العبد المغرور بالآمال هارون الرشيد الذى سلب حلاوة الإيمان ، اما بعد :
فإنى قد كتبت إليك اعرفك أنى قد ضربت حبلك وقطعت ودك وقليت
موضعك فإنك قد جعلتنى شاهداً عليك بإقرارك على نفسك في كتابك
بما هجمت به على بيت مال المسلمين فانفقته في غير حقه وانفذته في
غير حكمه ، ثم لم ترض بما فعلته وأنت ناء عنى حتى كتبت الى

تشهدني على نفسك ، أما انى قد شهدت عليك أنا وإخوانى الذين
شهدوا قراءة كتابك وسنؤدى الشهادة عليك غدا بين يدى الله تعالى ،
يا هارون هجمت على بيت مال المسلمين بغير رضاهم هل رضى بفعلك
المؤلفة قلوبهم والعاملون عليها في أرض الله تعالى المجاهدين في سبيل
الله وابن السبيل ؟ أم رضى بذلك خلق من رعيتك ؟ فشد ياهارون
مئزرك وأعد للمسألة جوابا وللبلاء جلبابا ، وأعلم أنك ستقف بين يدى
الحكم العدل فقد رزئت فى نفسك إذ سلبت حلاوة العلم والزهد ولذيذ
القرآن ومجالسة الأخيار ورضيت لنفسك أن تكون ظالما وللظالمين
إماما ، ياهارون قعدت على السرير ولبست الحرير وأسبلت ستراذون
بابك وتشبهت بالحجبة برب العالمين ، قد أقعدت أجنادك الظلمة دون
بابك وسترك ، يظلمون الناس ، ولا ينصفون ؟ يشربون الخمور ويضربون
من يشربها ويزنون ويجلدون الزانى ؟ ويسرقون ويقطعون السارق أفلا
كانت هذه الأحكام عليك وعليهم قبل أن تحكم بها على الناس ؟ فكيف
بك ياهارون غدا إذا نادى المنادى من قبَل الله تعالى (احشروا الذين
ظلموا وأزواجهم) أى الظلمة وأعوان الظَّلمة فقدمت بين يدى الله تعالى
ويداك مغلولتان إلى عنقك لا يفكهما إلا عدلك وإنصافك ، والظالمون
حولك وأنت لهم سابق وإمام إلى النار ، كأنى بك يا هارون وقد أخذت
بضيق الخناق ووردت المساق وأنت ترى حسناتك في ميزان غيرك
وسيئات غيرك في ميزانك زيادة عن سيئاتك بلاء على بلاء وظلمة فوق
ظلمة ، فاحتفظ بوصيتى واتعظ بوعظتى التي وعظتك بها ، واعلم أنى
قد نصحتك وما ابقيت لك في النصح غاية ، فاتق الله يا هارون في
رعيتك واحفظ محمدا صلى الله عليه وسلم في أمته وأحسن الخلافة
عليهم ، واعلم أن هذا الأمر لو بقى لغيرك لم يصل اليك وهو صائر إلى
غيرك وكذا الدنيا تنتقل بأهلها واحد بعد واحد فمنهم من تزود زادا نفعه
ومنهم من خسر دنياه وآخرته ، فإياك إياك أن تكتب لى كتابا بعد هذا
فلا أجيبك عنه والسلام ، قال عباد : فألقى إلي الكتاب منشورا غير
مطوى ولامختوم فأخذته وأقبلت إلي سوق الكوفة وقد وقعت الموعظة من
قلبى فناديت يا أهل الكوفة ، فأجابونى فقلت لهم : يا قوم من يشترى
رجلا هرب من الله إلى الله ، ؟ فأقبلوا إلى بالدنانير والدراهم ، فقلت :

لا حاجة لى في المال ولكن جُبّه صوف خشنة وعباءة قطوانية ، قال : فأتيت بذلك ونزعت ما كان على من اللباس الذى كنت ألبسه مع أمير المؤمنين ، وأقبلت أقود البرذون وعليه السلاح الذى كنت أحمله حتى أتيت باب أمير المؤمنين هارون حافيا راجلا ، فهزأ بى من كان علي باب الخليفة ، ثم استؤذن لى فلما دخلت عليه وبصر بى على تلك الحالة قام وقعد ، ثم قام قائما وجعل يلطم رأسه ووجهه ويدعو بالويل والحزن ويقول : انتفع الرسول وخاب المرسل مال وللدنيا مالى والملك يزول عنى سريعا ؟ ثم ألقيت الكتاب إليه منشورا كما دفع الى ، فأقبل هارون يقرؤه ودموعه تنحدر من عينيه ويقرأ ويشهق فقال بعض جلسائه : يا أمير المؤمنين لقد اجترءعليك سفيان فلو وجهت إليه فأثقلته بالحديد وضيقت عليه السجن كنت تجعله عبرة لغيره ، فقال هارون : اتركونا يا عبيد الدنيا ، المغرور من غررتموه والشقى من أهلكتموه ، وان سفيان أمة وحده فاتركوا سفيان وشأنه ،ثم لم يزل كتاب سفيان إلى جنب هارون يقرؤه عند كل صلاة حتى توفي رحمة الله ، فرحم الله عبدا نظر لنفسه واتقى الله فيمايقدم عليه غدا من عمله فإنه عليه يحاسب وبه يجازى والله ولى التوفيق .

وعن عبد الله بن مهران قال : حج الرشيد فوافى الكوفة فأقام بها أياما ثم ضرب بالرحيل ، فخرج الناس ، وخرج بهلول المجنون فيمن خرج بالكناسة والصبيان يؤذونه ويولعون به ، إذ أقبلت هوادج هارون فكف الصبيان عن الولوع به فلما جاء هارون نادى بأعلى صوته : يا أمير المؤمنين فكشف هارون السجاف بيده عن وجهه فقال : لبيك يا بهلول فقال : ياأمير المؤمنين ، حدثنا أيمن بن نائل عن قدامة بن عبد الله العامري قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفه على ناقة له صهباء لا ضرب ولا طرد ولا إليك (١) وتواضعك في سفرك هذا

(١) حديث قدامة بن عبد الله العامرى : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم منصرفا من عرفة على ناقة له صهباء لاضرب ولا طرد ولاإليك إليك . أخرجه الترمذى وصححه والنسائى وابن ماجه دون قوله منصرفا من عرفة وإنما قالوا : يرمى الجمرة ، وهو الصواب

يا أمير المؤمنين خير لك من تكبرك وتجبرك ، قال : فبكى هارون حتى سقطت دموعه على الأرض ، ثم قال : يا بهلول زدنا رحمك الله قال نعم يا أمير المؤمنين ، رجل آتاه الله مالا وجمالا فأنفق من ماله وعف في جماله كتب في خالص ديوان الله تعالى مع الأبرار ، قال : أحسنت يا بهلول ، ودفع له جائزة فقال : أردد الجائزة إلى من أخذتها منه فلا حاجة لى فيها ، قال : يا بهلول فإن كان عليك دين قضيناه ، قال يا أمير المؤمنين هؤلاء أهل العلم بالكوفة متوافرون قد اجتمعت آراؤهم أن قضاءالدين بالدين لا يجوز - قال : يا بهلول فنجرى عليك ما يقوتك أو يقيك ، قال : فرفع بهلول رأسه الى السماء ثم قال : يا أمير المؤمنين أنا وأنت من عيال الله فمحال أن يذكرك وينسانى ، قال : فأسبل هارون السجاف ومضى .

وفي فترة اتصاله الوثيق بالقاعدة العريضة من المجتمع الاسلامى الذى كان يعيش فيه استطاع الغزالى أن يعرف عادات وتقاليد وأساليب الحياة في هذه البيئات ووضع يده على عيوب الطبقات المختلفة ووضع في إحياء علوم الدين بابا كاملا هو الباب الثالث من كتاب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر (١) فتحدث من خلاله عن المنكرات المألوفة في العادات مثل منكرات المساجد ومنكرات الأسواق ومنكرات الشوارع ومنكرات الضيافة والمنكرات العامة .

وفي الكتاب الثامن من الربع الرابع ربع المنجيات من إحياء علوم الدين يتحدث الغزالى عن توبيخ النفس ومعاتبتها حديث عالم النفس الخبير بالنفوس البشرية وما أروع حديثه حين يقول(٢) « وإن لازمتها بالتوبيخ والمعاتبة والعذل والملامة كانت نفسك هي النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس المطمئنة المدعوة إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية ، فلا تغفلن ساعة عن تذكيرها ومعاتبتها

(١) وهو الكتاب التاسع من ربع العادات الثانى
(٢) الإحياء جـ ٤ صفحة ٤١٦ و ٤١٧ .

ولا تشتغلن بوعظ غيرك مالم تشتغل أولا بوعظ نفسك أوحى الله تعالى الى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ نفسك فإن اتعظت فعظ الناس ألا فاستحى منى ، وقال تعالى «وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين» وسبيلك أن تقبل عليها فتقررعندها جهلها وغباوتها وإنها أبدا تتعزز بفطنتها وهدايتها ، ويشتد أنفها واستنكافها إذا نسبت إلى الحمق فتقول لها : يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنه وأنت أشد الناس غباوة وحمقا ، أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنك صائرة إلى احداهما على القرب ؟ فما لك تفرحين وتضحكين وتشتغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم تختطفين أو غدا ، فأراك ترين الموت بعيدا ويراه الله قريبا ؟ أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن البعيد ما ليس بآت ؟ أما تعلمين أن الموت يأتي بغتة من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواطأة وأنه لا يأتي في شيء دون شيئ ولا في شتاء دون صيف ولا شتاء دون صيف ولا في صيف دون شتاء ولا في نهار دون ليل ولا في ليل دون نهار ولا يأتي في الصبا دون الشباب ولا في الشباب دون الصبا بل كل نفس من الانفاس يمكن ان يكون فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم يفضى إلى الموت فما لك لا تستعدين للموت ، وهو أقرب إليك من كل قريب ؟ أما تتدبرين قوله تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم) ويحك يا نفس إن كانت جراءتك على معصية الله لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع علمك باطلاعه فما أشد وقاحتك وأقل حياءك ، ويحك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من اخواتك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومقتك له فبأى جسارة تتعرضين لمقت الله وغضبه وشديد عقابه افتظنين أنك تطيقين عذابه هيهات هيهات ، جربى نفسك إن ألهاك

البطر عن أليم عذابه فاحتبسي ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قربى اصبعك من النار ليتبين قدر طاقتك ؟ أم تغترين بكرم الله وفضله واستغنائه عن طاعتك وعبادتك فما لك لا تعولين على كرم الله تعالى في مهمات دنياك ، فإذا قصدك عدو فلم تستنبطين الحيل في دفعه ولا تكلينه إلى كرم الله تعالى ، وإذا ارهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لاينقضى الا بالدينار والدرهم فما لك تنزعين الروح في طلبها وتحصيلها من وجوه الحيل فلا تعولين على كرم الله تعالى حتى يعثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سَعْيٍ منك ولا طلب ؟ أفتحسبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبديل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وان ليس للإنسان إلا ما سعى" ، ويحك يا نفس ما أعجب نفاقك ودواعيك الباطلة فإنك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك الم يقل لك سيدك ومولاك (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها) وقال في أمر الآخرة (وان ليس للانسان إلا ما سعى) فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تتكالبين على طلبها تكالب المدهوش المستهتر ، ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراض المغرور المستحقر ، ما هذا من علامات الإيمان لو كان الإيمان باللسان فلم كان المنافقون في الدرك الأسفل من النار ؟ ويحك يا نفس كأنك لا تؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انفلت وتخلصت وهيهات (أتحسبين أنك تتركين سدى) .

ويرى الدكتور عبد الرحمن بدوي أن هناك أثرا يونانيا في باب «توبيخ النفس ومعاتبتها» في كتاب المراقبة والمحاسبة من «إحياء علوم الدين» فهذا الباب في رأيه قد تأثر فيه الغزالى نموذجا يونانيا رائعا ، هو كتاب «معاذلة النفس» المنسوب عادة إلى هرمس ، وأحيانا قليلة إلى افلاطون ، وهو من الكتب المنحولة الموضوعة في العهد الهليني المتأخر ، ويدعى أحيانا في بعض المخطوطات باسم «كتاب معاذلة النفس» وأحيانا أخرى ينسب إلى أرسطو ويدعى «زجر النفس» كما

أشار إلى ذلك حاجى خليفة (١).

وقد نشر الدكتور عبد الرحمن بدوى كتاب «معاذلة النفس» ضمن كتابه «الأفلاطونية المحدثة عند العرب» ، وحقق في مقدمته ان هذا الكتاب من العهد الهلينى المتأخر ، أى قبل الاسلام ، فيما بين القرنين الثالث والخامس الميلاديين ، وأنه اثر من الآثار الهرمسية التى غزت الفكر اليونانى المتأخر ، ولعل كاتبه كان وثنيا زاهدا مؤمنا بالآفلاطونية المحدثة والغنوصية فهو إذن أدخل في باب الادب الهرمسى الذى انتشر انتشارا هائلا تحت اسم هرمس ، وهو اسم مجهول غامض ، وذلك في فترة انحلال الحضارة اليونانية الرومانية .

ويستدرك الدكتور عبد الرحمن بدوى رأ يه بقوله :

«.. لكن تأثر الغزالى إنما هو بالصياغة وطريقة المناجاة ، فالكتاب كان بمثابة نموذج أدبى يونانى عارضه الغزالى بنموذج إسلامى من نفس القالب ، وتتردد فيه أحيانا نفس المعانى .(٢)

لكن الغزالى حرص كل الحرص على أن يصيغه بالصبغة الاسلامية القرآنية نظرا إلى أنه ولعله اشتم في نموذجه أن روحه يونانية وثنية وأن كانت زاهدة رفيعة السمو الروحى ، وإن القارىء لهذا الفصل في كتاب «الإحياء» للغزالى ليدهشه هذا القالب الذى صبت فيه عباراته ، إذ لا نجد هذا القالب عند كاتب اسلامى آخر قبل الغزالى ولابعده .

ويقول الدكتور بدوى كذلك ،، ولكن هذا التشابه الواضح في الصياغة وفي بعض المعانى البارزة يجب ألآ ينسينا الفارق بين الكاتبين ، فهرمس (المتحول طبعا) يستخدم العبارات الفلسفية الآفلاطونية المحدثة كثيرا في كلامه مثل العقل وكونه للنفس كالاب ، والطبيعة وكونها كالزوجة ، وكلامه عن دار المحسوسات ودار المعقولات ، وإن

(١) فى كتاب كشف الظنون صفحة ٥٤ تحت رقم ٦٨٤٦ .

(٢) بحث د. عبد الرحمن بدوى ضمن أبحاث مهرجان الغزالى بدمشق ص ٢٢٦ .

النفس سجن البدن ، والجوهر الصورى .. يدخل في الاصطلاحات الأفلاطونية المحدثة اما الغزالى فكلامه بسيط مستمد من معانى القرآن وعباراته دون إدخال أى اصطلاح فلسفى ، كما هو شأنه في كتاب «الإحياء» كله لأنه يتجه به إلى عامة الناس ولهذا نستطيع ان نقول على وجه العموم ان الغزالى انما تأثر بالروح العامة ثم بأسلوب الكتابة في رسالة «معاذلة النفس» لهرمس ، وفيما عدا ذلك يدخل جل بل كل كلامه في الاطار الاسلامى الخالص ، خصوصا وليس في رسالة هرمس أدنى إشارة إلي حساب وعقاب وآخره ، بينما الغزالى يحرص على توكيد هذه المعانى في معاتبته للنفس بتخويفها بها لزجرها ، ومن هنا كان من الممكن أستخراج فلسفة واضحة المعالم بادية الاسارير من رسالة هرمس أماعن فصل الغزالى في «الإحياء» فلا نكاد نستخرج غير جمل مؤثرة في الوعظ .

لكن ليس لنا أن نقوم بالتقويم بين الاثنين ، لان هدف كليهما ، والجمهور الذى يتجه إليه كلاهما مختلف (١) .

والحقيقة أن ما بين «معاذلة النفس» لهرمس ، وباب توبيخ النفس ومحاسبتها للغزالى وعدد صفحاته سبع صفحات فقط من ٤١٦ الى صفحة ٤٢٢ من الجزء الرابع من كتاب «الاحياء» اقول ما بينهما من صلة لا يرقى إلى مرقى التأثير ، والتأثر ، فروح كتابات الغزالى طابعها إيمانى عميق وكتابات هرمس يغلب عليها روح الوثنية اليونانية رغم ما يشوب كتاباته في «معاذلة النفس» من زهد وغنوصية ظاهره .. وانه من الخطأ ان نقول ببساطة هكذا أن الغزالى قد تأثر في هذا الباب بكتابات «هرمس» الوثنى الزاهد المتأثر بالافلاطونية المحدثة والغنوصية

لهذا أزعم ان الأستاذ الدكتور بدوى خانه التوفيق في هذه الملاحظة ، ولعل ذلك راجع إلى فكرة مسبقة في ذهنه وهى تأثر الغزالى بالافلاطونية المحدثة والفلسفة اليونانية تأثرا كبيرا ، ولو أنه نظر

(١) المرجع السابق ص ٢٢٩ .

للمسألة بنزاهة وموضوعية ودون فكرة أو اتجاه مسبق ما رأى هذا الرأى وما اتجه هذا الاتجاه – وبالذات – في إحياء علوم الدين .

٢- مشكاة الأنوار :

من أبدع وأجمل رسائل الغزالي هذه الرسالة الرائعة .

وقد شك بعض الباحثين في صحة نسبة رسالة «المشكاة» إلى الغزالى منهم ، الدكتور عبد القادر محمود(١) والذى يقول .. وقد لاحظت بمقارنة حديث الحجب والتجلى ، تجلى الله الأعظم في نوره المحمدى عبر الأنبياء والأولياء – أقول (أى الدكتور عبد القادر محمود) أنى لاحظت أن مضمونه يتسق ويوثق تمام التوثيق بما ذكره الغلو الشيعى عن الإمام جعفر الصادق زورا – بأنه روى عن الإمام على ان النور المحمدى كان منطويا على حجاب القدرة سبعة آلاف سنة ، وعلى حجاب الهداية خمسة آلاف سنة ، وعلى حجاب اللطف تسعة آلاف سنة والغزالى من هذا براء» .(٢)

ويقول الدكتور عبد القادر محمود (٣) .. نلاحظ ان «المشكاة» ترادف بين معنى الروح أو الامر الإلهى وبين النبى صلي الله عليه وسلم وهذا لم ينطق ولم يشر إليه الغزالى على الاطلاق هنا أو لدى أى مؤلف من مؤلفاته المنحولة الأخرى فضلا عن الأصيلة ، في الوقت الذى تصل المشكاة الغزالى بركب الفيض والصدور ووحدة الشهود والاتجاه والميل إلى الاتحاد والحلول وهو الذى ذكر في أمهات كتبه أن كل هذا خطأ بل كفر هذه الاتجاهات .

... ولاشك أن هذا الاتجاه يمضى بالغزالى بالركب المتفصل وهو منه براء .

(١) فى كتابه الفلسفة الصوفية فى الإسلام طبعة دار الفكر العربى بالقاهرة صفحة ٢١١ – ٢١٥ .

(٢) خاصة الأخبار لمحمد تقى الخونسارى صفحة ٢٨ .

(٣) الفلسفة الصوفية فى الإسلام للدكتور عبد القادر محمود صفحة ٢١٢ .

ويذكر أن «فنسك» ألقى الشك علي الفصل الأول من المشكاة وأن مونتجومرى أكد أن الفصل الثالث منها منحول (١)

والحقيقة أن كل ما حاوله «فنسنك» هو محاولة متواضعة كى يثبت أن القسم الأول من «مشكاة الانوار» مجرد تلخيص للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات أفلوطين وهى محاولة متعسفة كل التعسف .

اما بالنسبة لمونتجومرى فقد رد على مزاعمه الدكتور بدوى حين قال (٢) : زعم مونتجومرى وت في بحث القاه بمؤتمر المستشرقين في باريس سنة ١٩٤٨ (ونشره بعد ذلك فى J RA S لسنة ١٩٤٩م ص٥ –ص٢٢) ان الفصل الثالث من «مشكاة الانوار» في معنى قوله صلي الله عليه وسلم أن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره .. نقول أنه زعم أن هذا الفصل الثالث منحول ومقحم على النص الاصلى لمشكاة الانوار بدعوى أن فصيل «الحجب» هذا ، على حد تعبيره ، هو ذو نزعة أفلاطونية محدثة واضحة .. بينما الغزالى لم يتنصل في أى موضع آخر – صراحة أو تضمينا من النقد الذى وجهه إلى الأفلاطونية المحدثة في كتاب «التهافت» وإن كان قد اقترب منها من عدة نواح (صفحة ٢١ – صفحة ٢٢ من المقالة المذكورة).

ويقول الدكتور بدوى وقد رددت عليه بعد إلقائه بحثه في مؤتمر المستشرقين فقلت له أنه توجد نسخة مخطوطة من كتاب «مشكاة الأنوار» في المجموعة رقم ١٧١٢ بمكتبة شهود على باشا باستنبول ، وهذا المجموع تاريخ كتابته سنة تسع وخمسمائة بخط وملك عبد المجيد بن الفضل الفزارى الطبرى ومنه صورة شمسية في دار الكتب المصرية برقم ٣٦٦٢ تصوف ، أى بعد وفاة الغزالي بأربع سنوات ، وفيه الفصل الثالث هذا ، وهذه حجة قاطعة تقضى على دعواه ، إذ لا سبيل إلى

(١) المرجع السابق ٢١٣ .

(٢) مؤلفات الغزالى للدكتور بدوى صفحة ١٩٧ .

الشك في صحة تاريخ هذه المخطوطة ، فضلا عن أن الغزالى نفسه أشار الى هذا الفصل في مقدمة المشكاة .

من كل ذلك يتضح لنا صحة نسبة رسالة «المشكاة» إلي الغزالى التي لا نشك في نسبتها لحجة الإسلام الإمام الغزالي رضي الله عنه .

ولعل من أفضل الردود على «مونتجومرى وات» رد استاذنا الجليل أبو العلا عفيفي في مقدمته الرائعة لمشكاة الانوار حيث قال[١]: ذهب «مونتجمرى وات» في مقاله له نشرت في المجلة الاسيوية الملكية سنة ١٩٥٤ إلى ان الفصل الثالث من المشكاة فصل منتحل وأن مؤلفه كان أحد الكتاب المتأثرين بفلسفة ابن سينا فى إثبات وحدة الأول على نحو ما فسرها ابن سينا في كتاب النجاة وذلك على اساس ان الاسلام السنى كان يفهم (التوحيد) دائما بمعنى نفى الشريك لله لا بمعنى الوحدة الذاتية ، وان هذا المعني الأخير هو ما ذهب إليه أصحاب الأفلاطونية الحديثة الذين نفوا كل معنى من معانى التعدد فى ذات الواحد : وبذلك نفوا الصفات الإلهية .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفي : وهذه كلها مقدمات لا أرى فيها ما يبرر استنتاج الأستاذ «مونتجومرى وات» أن فصل الحجب فى جملته منحول ومقحم على رسالة المشكاة ، لأن الغزالى لم ينكر صفات الله فى هذا الفصل وإنما أنكر كيفية إطلاقها على الله عند مختلف فرق المتكلمين والفلاسفة ، فهو لم ينكر ان الله عالم قادر مريد متكلم ... الخ ، ولكنه أنكر إطلاق هذه الصفات على الله على النحو الذى يطلقها عليه المشبهة ، ولم ينكر أن الله نور ، ولكنه أنكر أن يطلق هذا الوصف على معبود آخر كالشمس أو القمر أو الكواكب الأخرى ، ولم ينكر أن الله قهار ولكنه أنكر أن تطلق هذه الصفة الالهية على موجود مادى كالنار عند من يعبدونها .

(١) المشكاة . . صفحة ٣٠ – وصفحة ٣١ .

ولم يكن هم الغزالى وهو يتكلم عن تنزيه الله أن ينفى الشريك للبارى فقط ، بل كان همه أيضا أن يقرر الوحدة الذاتية لله ، ومشكلة الصفات عند متكلمى الإسلام وفلاسفتهم هى مشكلة الوحدة الذاتية الإلهية .

ثم ان «وات» لم ينتبه إلى أن الغزالى فى هذا الفصل حاول أن يحل مشكلة الصفات على أساس صوفى بعد أن بحثها من الوجهة الكلامية والفلسفية «فالواصلون» فى اصطلاح الغزالى هم الصوفية أصحاب الذوق الذين يدركون الله ادراكا مباشرا ، ويرونه مقدسا منزها عن جميع ما يخطر ببالنا وصفه به أما «وات» فيقول إن الواصلين الذين يتكلم عنهم الغزالى لا يمتازون عن غيرهم من المحجوبين إلا فى أنهم يأخذون بنظرية «المطاع» ، ثم يقول إن فصل الحجب ليس له توطئة تمهد له في الرسالة ، وأى توطئة للكلام عن الحجب أقوى من ذكر النور وأنواعه ودرجاته : لأن الحجب التى تكلم عنها الغزالى حواجز تخفى هذا النور وتحول دون ظهوره وجلاله ، فإذا ارتفعت الحجب بجميع أنواعها ظهر النور الإلهى القاهر وأحرقت سبحات وجه الله كل ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم كما يقول الحديث .

وفيم الشك فى نسبة الفصل الثالث من الرسالة إلى الغزالى وهو يقرر فيها أنها مؤلفه من ثلاثة فصول – لامن فصلين ، ويشير صراحة إلى حديث الحجب الذى هو موضوع الفصل الثالث ، ويحيل فى الفصلين الأول والثانى على الفصل الثالث وفى الفصل الثالث عليهما ؟

ومما يثبت صحة نسبة الفصل الثالث إلى الرسالة أنه ورد برمته فى مخطوطة شهيد على التى كتبت سنة ٥٠٩ أى بعد وفاة الغزالى بأربع سنوات .

.. وأخيرا نرى ابن طفيل يقتبس فقرة طويلة هامة من هذا الفصل فى رسالة «حى بن يقظان» من غير أن يثير إشكالا حول صحة نسبته

إلى الغزالى .

فالشواهد كلها مجمعة على أن فصل الحجب فى رسالة المشكاة جزء أصيل منها متمم للفصلين السابقين عليه ، وأنه من حيث المادة والأسلوب متمش مع بقية الرسالة غير مقحم عليها .

التزجمة والدراسات حول مشكاة الأنوار :

من أهم الدراسات عن المشكاة مقالا كتبه «فنسنك» فى «ليدن» سنة ١٩٤٤ فى عشر صفحات (١).

– وبحث نشره جيردنر W . H . T . Gairdner بمجلة الاسلام DERISLAM بالإنجليزية بعنوان «مشكاة الانوار ومشكاة الغزالى» سنة ١٩١٤ (٢)

– وبحث موتنجومرى وات بمجلة الجمعية الملكية الاسيوية سنة ١٩٤٩ .

ويقول الدكتور أبو العلا عفيفى فى تصديره للكتاب لم تحظ المشكاة من الترجمات إلى اللغات الاوربية الا بثلاثة : الأولى ترجمة الى اللاتينية .

قام بها اسحق بن يوسف الفاسى ، والثانية إلى اللاتينية أيضا وقد قام بها مترجم مجهول ، والثالثة الى الإنجليزية قام بها جيردنر سنة ١٩٢٤ (٣).

والواقع أن أستاذنا الجليل الدكتور أبو العلا عفيفى رحمه الله

(١) وفى هذا المقال حاول فنسنك أن يثبت أن القسم الأول من مشكاة الأنوار ليس إلا تلخيصا للفصل الخامس من التساع الرابع من تساعات افلوطين وهو بذلك يحاول أن يلقى بعض الشكوك حول صحة نسبة الفصل الأول إلى الغزالى ، لكن النسبة صحيحة .

(٢) W . H. T. Gairdner : "Al . Ghazáli's Miskat al . Anwar and the Gazali -problem" in Der Islam , Vol - 4,1914 .

(٣) مشكاة الأنوار للغزالى تحقيق د . عفيفى ص ٩

وأسكنه فسيح جناته جانبه الصواب بالنسبة للترجمتين اللاتينيتين ، فالحقيقة أنهما ترجمتان عبريتان لاتينيتان كما ذكر ، فكما أشار الدكتور بدوى فى مؤلفات الغزالى (١) لاترجم مشكاة الانوار إلى العبرية اسحق بن يوسف الفاسى ، ومن هذه الترجمة مخطوطتان فى مكتبة بودلى باكسفورد برقمي ٣٢٥ و٣٩٢ مخطوطات عبرية ، والاول ينقصه آخره ، واسحق بن يوسف الفاسى غير اسحق الفاسى بن يعقوب (المتوفى سنة ١١٠٣ فى لوثينا) وهو من علماء التلمود المشهورين ، ويقول اشتبنشنيدر أن المترجم لعله والد موسى بن اسحق الفاسى الذى كان يعيش فى سنة ١٢٩٨م.

وتوجد ترجمة عبرية أخرى لمترجم مجهول ، في مخطوط بالفاتيكان برقم ٢٠٩ وقد فسر DUKES الفصل الثالث من هذه الترجمة العبرية تبعا للمخطوط الناقص I,P.IXPP,P.9 Oوكما ذكرنا فقد ترجمها إلى الإنجليزية W.H.T.GAIRDNER,LONDON 1924

ويقع كتاب مشكاة الأنوار (٢) للإمام أبى حامد الغزالى فى ثلاثة فصول الفصل الاول فى بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز مَحْض لا حقيقه له ، والمثال الثانى في بيان مثال المشكاة والمصباح والزجاجة والشجر والزيت والنار ، وبيان مراتب الارواح البشرية النورانية ، والفصل الثالث فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم «ان لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه من كل من أدركه بصره »وقسمه إلى المحجوبين بمحض الظلمة والمحجوبين بنور مقرون بظلمة ، والمحجوبين بمحض الأنوار .

وموضوع الرسالة إجابة لسؤال من أخ كريم سأله أن يبث له أسرار

(١) مؤلفات الغزالى للدكتور بدوى ص ١٩٦ .

(٢) طبع الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ ، سنة ١٣٢٥ هـ ، وسنة ١٩٢٩م ، وسنة ١٣٥٢ هـ ضمن مجموعة "الجواهر الغوالى من رسائل الإمام حجة الإسلام الغزالى" نشرها صبرى الكردى ، وطبع بحلب ١٩٢٢م ، وطبع طبعة محققة للدكتور أبو العلا عفيفى رحمه الله طبعة الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٤ ، وهى الطبعة التى اعتمدنا عليها فى هذه الدراسة

الانوار الإلهية مقرونة بتأويل ما يشير إليه ظواهر الآيات المتلوة والأخبار المروية مثل قوله تعالى «الله نور السموات والأرض »(النور : ٣٥) ومعنى تمثيله ذلك بالمشكاة والزجاجة والمصباح والزيت والشجرة ، مع قوله صلى الله عليه وسلم «إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة وأنه لو كشفها لاحرقت سبحات وجهه كل من أدركه بصره» .

ونتلمس فى هذه الرسالة إرهاصات فلسفة اشراقية فى فكر الغزالى ومن خلال منهجه فى التأويل يحاول أن يستخدم بعض التأويلات الباطنية يكشف من بين ثناياها عن مكنونات إشارات ورموز باطن الآية والحديث .

ويقول الغزالى لصاحب السؤال «ولقد ارتقيت بسؤالك مرتقى صعبا تنخفض دون أعاليه أعين الناظرين ، وقرعت بابا مغلقا لا يفتح إلا للعلماء الراسخين ، بل صدور الأحرار قبور الأسرار ..

.. لكنى أراك مشروح الصدر بالله منزه السر عن ظلمات الغرور ، فلا أشح عليك فى هذا الفن بالاشارة إلى لوامع ولوائح ، والرمز إلى حقائق ودقائق ، فليس الخوف فى كف العلم عن أهله بأقل منه فى بثه إلى غير أهله .

فمن منح الجهال علما أضاعه .·. ومن منع المستوجبين فقد ظلم

«فاقنع بإشارات مختصرة وتلويحات موجزة» (١)

فالغزالى يقدم لنا فى هذه الرسالة مجرد إشارات وتلويحات مختصرة ولوامح ولوائح سريعة فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن من العلم كهيئة المكنون لا يعلمه إلا العلماء بالله فإذا نطقوا به لم ينكره إلا أهل الغرة بالله ومهما كثر أهل الاغترار وجب حفظ الأسرار على وجه الإسرار ».

(١) المشكاة صفحة ٣٩ وصفحة ٤٠ .

وموضوع الفصل الاول من الرسالة في بيان أن النور الحق هو الله تعالى وأن اسم النور لغيره مجاز محض لا حقيقة له «وبيانه بأن يعرف معنى النور بالوضع الاول عند العوام ، ثم بالوضع الثانى عند الخواص ، ثم بالوضع الثالث عند خواص الخواص ، ثم تعرف درجات الأنوار المذكورة المنسوبة إلى خواص الخواص وحقائقها لينكشف لك عند ظهور درجاتها أن الله تعالى هو النور الأعلى الأقصى وعند انكشاف حقائقها أنه النور الحق الحقيقي وحده لا شريك له فيه (١).

والغزالى يريد أن يؤكد على حقيقة كبرى (هى أن الله تعالى هو نور الأنوار الذى تنبعث منه كل الانوار التى تسمى أنواراً مجازا لكن النور الحقيقى الحق فهو نور الله تعالى .

ومعنى النور بالوضع الاول عند العامى أنه يشير إلى الظهور وهو عبارة عما يبصر بنفسه ويبصر به غيره كالشمس ، هذا حده وحقيقته بالوضع الاول ، فالنور عند العوام يقصد به الظهور والظهورأمر إضافى : إذ يظهر الشىء لا محالة لانسان ويبطن عن غيره ، فيكون ظاهرا بالإضافة وباطنا بالإضافة ، وإضافة ظهوره إلي الادراكات لا محالة ، وأقوى الإدراكات وأجلاها عند العوام الحواس ، ومنها حاسة البصر (٢).

والنور لا يدرك ولا يبصر إلا من خلال عين باصرة تبصره ولهذا اعتبر الغزالى الروح الباصرة ركنا أساسيا في إدراكه لأنها المدركة وبها الإبصار والإدراك .

لهذا كما يقول الغزالى -كان اسم النور بالنور الباصر أحق منه من النور المبصر .

ثم يتدرج الإمام الغزالى فى إلقاء الظلال على معنى النور عند الخواص فيقول «وأطلقوا اسم النور على نور العين المبصرة فقالوا فى

(١) المشكاة صفحة ٤١ .
(٢) المشكاة صفحة ٤١ .

الخفاش أن نور عينيه ضعيف ، وفى الأعمش انه ضعيف نور بصره ، وفى الأعمى انه فقد نور البصر ...فقد عرفت بهذا أن الروح الباصرسمى نورا ، وأنه لم سمى نورا ، وانه لم كان بهذا الاسم أولى وهذا هو الوضع الثانى وهو وضع الخواص »(١)".

وبصر العين مع أنه من وسائل الإدراك إلا أنه به أنواع النقصان فإنه يبصر غيره ولا يبصر نفسه ، ولا يبصر ما بَعُد منه ، ولا يبصر ما هو وراءحجاب .

ويبصر من الأشياء ظاهرها دون باطنها ، ويبصر من الموجودات بعضها دون كلها ، ويبصر أشياء متناهية ولا يبصر ما لا نهايه ، ويغلط كثيرا فى إبصاره فيرى الكبير صغيرا والبعيد قريبا والساكن متحركا والمتحرك ساكنا فهذه سبع نقائص لا تفارق العين الظاهرة . (٢)

لكن فى قلب الانسان «عينا»كاملة لا يشوبها شى ء من هذه النقائص وهى(العقل)أو «الروح» أو «النفس الانسانى» ، وإذا كانت العين أولى باسم النور من النور المعروف ، فإن العقل أولى باسم النور من العين الظاهرة لسموه عن نقائص العين فالعين لا تبصر نفسها ، ونور العقل يدرك غيره ويدرك صفات نفسه والعقل يدرك القريب والبعيد ، والعقل يدرك ما وراء حجب السموات والملأ الأعلى والملكوت الأسمى ، والعقل يدرك ظاهر الأشياء وباطنها وصورها وحقائقها ، ويتغلغل إلى بواطن الأشياء وأسرارها ويدرك حقائقها وأرواحها ويستنبط سببها وعلتها وغايتها وحكمتها ، والعقل يدرك العالم كله فالموجودات كلها مجال العقل ، والعقل يدرك المعلومات ، والمعلومات لا يتصور أن تكون متناهية فإنه مثلا يدرك الأعداد ولا نهاية لها ، بل يدرك تضعيفات الإثنين والثلاثة وسائر الاعداد ولا يتصور لها نهاية ، ويدرك أنواعا من النسب بين الأعداد لا يتصور التناهى عليها بل يدرك علمه بالشىء

(١) المشكاة ص ٤٢ وص ٤٣ .
(٢) المشكاة ص ٤٣ .

وعلمه بعلم الشىء ، وعلمه بعلمه ، فقوته فى هذا الواحد لا تقف عند نهاية (١)

وان العين تبصر الكبير صغيرا ، فترى الشمس قرصا صغيرا ، والعقل يدرك أن الكواكب والشمس أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ؟

وغلط البصر كثير ،والعقل منزه عن هذه الأخطاء .

ومع أن العقل استحق عن كمالاته هذه اسم النور لكن هناك "مالايقارن العقل فى كل حال إذا عرض عليه بل يحتاج إلى أن يهز أعطافه بالتنبيه كالنظريات ، وانما ينبهه كلام الحكمة فعند اشراق نور الحكمة يصير العقل مبصرابالفعل بعد أن كان مبصرا بالقوة واعظم الحكمة كلام تعالى ومن جملة كلامه القرآن خاصة فتكون منزلة أيات القرآن عند عين العقل منزلة نور الشمس عند العين الظاهرة إذ به الابصار فبالحرى أن يسمى القرآن نورا كما يسمى نور الشمس نورا .

فمثال القرآن نور الشمس ومثال العقل نور العين .

وبهذا نفهم معنى قوله تعالى فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا وقوله « قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا « التغابن : ٨ وقوله تعالى قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا (النساء : ١٧٤) .

ويتدرج الغزالى فى تجريد النور حتى يصل بنا الى نور من أنوار العالم العلوى عالم الملكوت الذى تعرج اليه نفوس الخلص من الدارجين السالكين عالم الغيب المشحون بالأنوار .

ويقول الغزالى « ولا تظن اناً نعنى بالعالم العلوى السموات فإنها علو وفوق فى حق عالم الشهادة والحس ، ويشارك فى ادراكه البهائم . وأما العبد فلايفتح له باب الملكوت ولايصير ملكوتيا إلا ويبدل فى حقه الأرض غير الأرض والسموات فيصير كل داخل تحت الحس والخيار

(١) المشكاة ص ٤٦ .

أرضه ومن جملة السموات ، وكل ما ارتفع عن الحس فسماؤه .

وهذا هو المعراج الأول لكل سالك ابتدأ سفره إلى قرب الحضرة الربوبية فالانسان مردود الى أسفل السافلين ، ومنه الى العالم الأعلي

وأما الملائكة فإنهم جملة عالم الملكوت عاكفون فى حضرة القدوس ومنها يشرقون إلى العالم الأسفل .... وعالم الشهادة أثر من ذلك العالم ، يجرى منه مجرى الظل بالاضافة الى الشخص والسبب بالاضافة الي السبب (١) .

والانوار السماوية التى تقتبس منها الأنوار الأرضية مرتبة بحيث يقتبس بعضها من بعض ، ومرتبة من حيث قربها وبعدها من منبع النور الأول ويشبهه الامام الغزالى بضوء القمر حينما يدخل فى كوة بيت فيقع على مرآة منصوبة على حائط فيمكن الضوء منها إلي حائط آخر فى مقابلتها ، وينعطف إلي الارض فيضيئها فأنت تعلم أن ما على الارض من نور تابع لما على الحائط ، وما على الحائط تابع لما على المرآة ، وما على المرآة تابع لما فى القمر ، وما فى القمر تابع لما فى الشمس : إذ منها يشرق النور على القمر ، وهذه الانوار الأربعة مرتبة بعضها أعلى وأكمل من بعض ، ولكل واحد مقام معلوم ودرجة خاصة لا يتعداها (٢) .

والانوار الملكوتية ايضا وجدت على ترتيب وأن المقرب هو الاقرب إلى النور المحض النور الأقصى منبع الأنوار جميعها وهم كثرة لهم ترتيبهم ومقاماتهم لدى واهب الانوار والنور الحق النور الاقصى الأعلى .

ومن هنا يتضح لنا أن اطلاق اسم النور علي غير النور الأول مجاز محض فكل ما سواه من حيث ذاته لا نور له لأن نوريته مستعارة من

---

(١) المشكاة ص ٤٩ : ص ٥١ باختصار .
(٢) المشكاة ص ٥٣ .

غيره ونسبة المستعار الى المستعير مجاز محض والنور الحق كما يقول الغزالي هوالذى بيده الخلق والأمر ، ومنه الإنارة أولا والإدامة ثانيا ، فالموجود الحق هو الله تعالى كما أن النور الحق هو الله تعالى ، وما «سوى الله» فهو في ذاته عدم محض .

وهذه الحقيقة يراها العارفون عندما يتدرجون فى مدارجهم الروحية ، ويفهمون ذوقا معنى قول الله تعالى : «كل شىء هالك إلاوجهه ، فهو مالك الملك في الدنيا والاخرة .

ونداءه فى عبيدة ومخلوقاته يوم الفزع الأكبر ، «لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار» نداء لايفارق أسماع البشر في هذه الدنيا فهو ليس قاصرا علي يوم الفزع الأكبر وانما هو النداء الابدى الخالد الذى نعنى أنه الوجود الحق كما أنه النور الحق وما سواه عدم محض .

والإمام الغزالى حين يقول أن العارفين يعرفون ان الوجود الحق هو الله تعالى فى حال تجربتهم الصوفية وفي حال وجودهم وفنائهم يشعرون بوحدة لا يرون إلا الوجود الحق الله تعالى وهذه وحدة شهود لا وحدة وجود كما حاول البعض ان يتهم الغزالي بأنه ممن بذروا فكرة وحدة الوجود في الفكر الاسلامى فى كتابه المشكاة ، والحقيقة أن الرجل يريد أن يقول أنه لا موجود علي الحقيقة إلا الله ، وأن وجود الكون ما هو إلا كانعكاس ضوء القمر على صفحة المرايا المختلفة فالكون لا وجود له إلا كانعكاس وجود الحق فيه .

وكما نعلم أن الغزالي ينكر تماما وجود مادة قديمة للعالم ويفند هذه المزاعم ويؤكد على أن العالم مخلوق حادث من عدم .

وحال «وحدة الشهود» خاطفة سريعة فتنتهى بسرعة كلمح البصر بعدها يصحو العارف ويعود إلى سلطان عقله وكلام العشاق فى حال السكر يطوى ولا يحكى .

فلما خف عنهم سكرهم وردوا إلى سلطان العقل الذى هو ميزان الله

في أرضه ، عرفوا أن ذلك لم يكن حقيقة الاتحاد بل شبه الاتحاد مثل قول العاشق في حال فرط عشقه «أنا من أهوى ومن أهوى أنا» ولا يبعد ان يفاجيء الانسان مرآة فينظر منها ولم ير المرآة قط ، فيظن ان الصورة التي رآها بصورة المرآة متحدة بها ، ويرى الخمر في الزجاج فيظن ان الخمر لون الزجاج ، واذا صار ذلك عنده مألوفا ورسخ فيه قدمه استغفر وقال :

رق الزجاج وراقت الخمر — فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح — وكأنما قدح ولا خمر

وفرق بين أن يقول : الخمر قدح ، وبين ان يقول : كأنه قدح ، وهذه الحالة اذا غلبت سميت بالاضافة الى صاحب الحالة (فناء) ، بل «فناء الفناء» : لانه فنى عن نفسه وفنى عن فنائه ، فإنه ليس يشعر بنفسه في تلك الحال ولا بعدم شعوره بنفسه ، ولو شعر بعدم شعوره بنفسه لكان قد شعر بنفسه ، وتسمى هذه الحالة بالإضافة الى المستغرق به بلسان المجاز اتحادا أو بلسان الحقيقة توحيدا (١)

وهكذا نستطيع أن نقول مطمئنين ان الغزالى لم يقل بوحدة الوجود ولم يذكر ان الحق هو الخلق وأنهما وجهان لحقيقة واحدة لا فرق بينهما إلا بالاعتبار ولكنه قال ان الله تعالى هو الوجود الحق وما سواه فهو في ذاته عدم محض .

وان توحيد العوام هو قول «لا اله الا الله» وان توحيد الخواص «لا اله الا هو» و «هو» هو كل ما يشار إليه ، ولهذا فان توحيد الخواص كما يقول - الغزالى ، أتم وأخص وأشمل وأحق وأدق وأدخل بصاحبه في الفردانية المحضة والوحدانية الصرفة ، ومنتهى معراج الخلائق مملكة الفردانية .

والفصل الثاني من رسالة المشكاة موضوعه بيان مثال المشكاة

(١) المشكاة ص ٥٧ ، وص ٥٨ .

والمصباح والزجاجة والشجرة والزيت والنار . ويقدم لذلك كله بمقدمه يبين من خلالها سر التمثيل ومنهاجه وكيفية الموازنة بين عالم الشهادة وعالم الملكوت . ثم يتحدث عن طبقات أرواح الطينة البشرية . فالرموز المذكورة "المشكاة" أو "المصباح" .... ما هى إلا رموز للأرواح البشرية فى رأى الغزالى .

وعن سر التمثيل ومنهاجه يقول الغزالى " اعلم أن العالم الملكوتى عالم غيب إذ هو غائب عن الأكثرين ، والعالم الحسى عالم الشهادة اذ يشهده الكافة . والعالم الحسى مرقاة الى العقلى . فلو لم يكن بينهما اتصال ومناسبة لانسد طريق الترقى إليه . ولو تعذر ذلك لتعذر السفر إلى حضرة الربوبية والقرب من الله تعالى " (١)

وهذا النص القصير يبين لنا أن الغزالى يريد أن يقول أن الاشياء فى عالم الشهادة "لها مثال"أو رمز فى عالم الملكوت وأن عالم الشهادة مدرج من المدارج الى عالم الغيب . وان الله سبحانه وتعالى هو الذى لا يماثله شئ لانه لا مثال له .

".... وان كان يوجد للصورة إلا نسبة نوع ترتيب على هذه الشاكلة فهى على صورة الرحمن . وفرق بين أن يقال " على صورة الرحمن " وبين أن يقال على صورة الله " لأن الرحمة الإلهية هى التى صورت الحضرة الإلهية بهذه الصورة . ثم أنعم على آدم فأعطاه صورة مختصرة جامعة لجميع أصناف ما فى العالم حتى كأنه كل ما فى العالم أو هو نسخة من العالم مختصرة .

وصورة آدم - أعنى هذه الصورة - مكتوبة بخط الله ، فهو الخط الإلهى الذى ليس برقم حروف ، إذ تنزه خطه عن أن يكون رقما وحروفا كما تنزه كلامه عن أن يكون صوتا وحرفا ، وقلمه عن أن يكون خشبا وقصبا ، ويده عن أن تكون لحما وعظما . ولولا هذه الرحمة لعجز الآدمى عن معرفة ربه إذ لا يعرف ربه إلا من عرف نفسه . فلما كان

(١) المشكاة صفحة ٧٠ .

هذا من آثار الرحمة صار على صورة الرحمن لا على صورة الله : فإن حضرة الإلهية غير حضرة الرحمة وغير حضرة الملك وغير حضرة الربوبية . ولذلك أمر بالعياذ بجميع هذه الحضرات فقال : " قل أعوذ برب الناس ، ملك الناس ، إله الناس " ولولا هذا المعنى لكان ينبغي أن يقول على صورته « واللفظ الوارد فى الحديث الصحيح « على صورة الرحمن [١] ويستخدم الغزالى منهجا خاصا فى التأويل وضرب الامثلة وهذا المنهج بعيد كل البعد عن مناهج الباطنية فهو ليس باطنيا ينكر الظاهر وليس حشويا ينكر أسرار الباطن ولكنه يجمع بين منهجى الظاهر والباطن فى سائر تأويلاته فهو كما يقول « فالذى يجرد الظاهر حشوى ، والذى يجرد الباطن باطنى والذى يجمع بينهما كامل »[٢]

ولهذا فإننا وجدنا الغزالى يبين لنامنهجه من خلال القائه الضوء على مجموعة من الأمثال الموجودة فى القرآن الكريم « فالطور» مثال لكل ماهو ثابت لا يتغير وعظيم لا يستصغر ، ومنه ينفجر الى أودية القلوب البشرية مياه المعارف ونفائس المكاشفات »[٣] ، "والوادى" مثال للموجودات التى تتلقى تلك النفائس العلويه ومنها تنسال إلى قلوب البشر .. وهكذا يستخدم منهجه التأويلى البعيد عن مناهج الباطنية والظاهرية وإنما يؤول القرآن بمنهج ذوقى وكشفى بديع .

والغزالى يدافع عن نفسه من اتهامه بفرْية كاذبه فيقول «لاتظن من هذا الأنموذج وطريق ضرب المثال رخصة منى في رفع الظواهر واعتقادا في إبطالها حتى أقول مثلا لم يكن مع موسى نعلان ، ولم يسمع الخطاب بقوله «اخلع نعليك» حاش لله ، فان إبطال الظواهر رأى الباطنية الذين نظروا بالعين العوراء إلى أحد العالمين ولم يفهموا وجهه ، كما أن ابطال الأسرار مذهب الحشوية » [٤].

---

(١) المشكاة . . صفحة ٧١ .
(٢) المشكاة . . صفحة ٧٣ .
(٣) المشكاة . . صفحة ٦٩ .
(٤) المشكاة . . صفحة ٧٣ .

وبعد ذلك يتناول الغزالى جزئية جديدة في هذا الموضوع وهي مراتب الأرواح البشرية النورانية إذ بمعرفتها تعرف أمثلة القرآن الكريم ويقسمها الغزالى إلى خمس مراتب هي: الروح الحساس ، والروح الخيالى ، والروح العقلى ، والروح الفكرى ، والروح القدسى النبوى ، والروح الحساس هو الذى يتلقى مدركات الحواس الخمس وهو موجود في الصبى والبالغ وهو من أصل الروح الحيوانى وأوله .

والثانى الروح الخيالى وهو الروح الحافظ المثبت لما أورده الحواس ويحفظه مخزونا عنده ليعرضه على الروح العقلى الذى فوقه عند الحاجة إليه . وهذا لايوجد للرضيع ويوجد له بعد ذلك ، وقد يوجد لدى بعض الحيوانات دون الأخرى ، فالكلب إذا ضرب مرة بخشبة ، فإذا رأى الخشبة بعد ذلك من بعد هرب .

والثالث الروح العقلى الذى به تدرك المعانى الخارجة عن الحس والخيال ومدركاته المعارف الضرورية الكلية ولهذا فهو الجوهر الإنسى الخاص فلا يوجد عند البهائم ولا عند الصبيان .

والرابع الروح الفكرى وهو الذى يأخذ العلوم العقلية المحضة فيوقع بينها تأليفات وازدواجات ويستنتج منها معارف شريفة ، ثم اذا استفاد نتيجتين مثلا، ألف بينهما مرة أخرى واستفاد نتيجة أخرى ، ولا يزال يتزايد كذلك إلى غير نهاية .

والخامس الروح القدسى النبوى الذى يخص به الأنبياء وبعض الأولياء وفيه تتجلى لوائح الغيب وأحكام الآخرة وجملة من معارف ملكوت السموات والأرض ، بل من المعارف الربانية التى يقصر دونها الروح العقلى والفكرى وإليه الاشارة بقوله تعالى «وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به» الآية ٥٢ - الشورى .

.. فاذا عرفت هذه الأرواح الخمسة فاعلم أنها بجملتها أنوار لأنها

تظهر أصناف الموجودات ، والحِسِّى والخيالى منها ، وان كان يشارك البهائم في جنسها ، لكن الذى للإنسانية منه نمط آخر أشرف وأعلى ، وخلق الانسان لأجل غرض أجل وأسمى

أما الحيوانات فلم يخلق ذلك لها إلا ليكون ألتها في طلب غذائها في تسخيرها للآدمى ،، وانما خلق للآدمى ليكون شبكة له يقتنص بها من العالم الاسفل مبادىء المعارف الدينية الشريفة ، اذ الإنسان إذا أدرك بالحس شخصا معينااقتبس عقله منه معنى عاما مطلقا (١).

وهذه الارواح الخمسة في موازنة للمشكاة والزجاجة والمصباح والشجرة والزيت ، فالروح الحساس في موازاة المشكاة لأن أنواره خارجة من عدة ثقب الحواس كالعينين والأذنين والمنخرين وغيرها أى كما ينفذ النور من المشكاة ، والروح الخيالى يوازى الزجاجة لانها من أصل كثيف بيد ان كلا منهما قابل للترقيق والتصفية والتهذيب ، وكما تضبط الزجاجة نور المصباح حتى لا يحجب نوره وتحفظه عن الإنطفاء بالرياح العاصفة ، كذلك فإن الخيال يضبط المعارف العقلية حتى لا تضطرب ولا تنتشر انتشارا يخرج عن الضبط .

والروح العقلى يوازى المصباح فبالروح العقلى يمكننا إدراك المعارف الإلهية الشريفة تماما كالمصباح الذى يمثل نوره النور الحِسِّى .

والروح الفكرى يوازى الشجرة لان الفكر بمثابة الشجرة ذات الفروع والأغصان الكثيرة تزدهر كلها من جذر واحد وأصل واحد تماما كالجذر من الشجرة ولان شجرة الزيتون بالذات زيتها أخلص وأنقى الزيوت وأرقها وأصفاها ، ويختص زيتها بخاصية زيادة الإشراق فشجرة الزيتون توازى الروح الفكرى ، وهى شجرة مباركة لأنها كثيرة الثمر ، ولان شعب الافكار العقلية المحضة خارجة عن قبول الإضافة إلى الجهات ولهذا فهى لا شرقية ولا غربية .

(١) المشكاة ص ٧٧ - ٧٩ .

كذلك فان الروح القدسى النبوى يوازى الزيت النقى الصافي الذى بلغ من النقاء والصفاء حدا يجعلة يضىء ولو لم تَمْسَسْهُ نار .

اذ من الأولياء من يكاد يشرق نوره حتى يكاد يستغنى عن مدد الانبياء ، وفي الانبياء من يكاد يستغنى عن مدد الملائكة .

وإذا كانت هذه الأنوار مرتبة بعضها على بعض : فالحِسِّى هو الأول ، وهو كالتوطئة والتمهيد للخيالى ، اذ لا يتصور الخيالى إلا موضوعا بعده ، والفكرى والعقلى يكونان بعدهما ، فبالحرى أن تكون الزجاجة كالمحل للمصباح والمشكاة كالمحل للزجاجة : فيكون المصباح في زجاجة ، والزجاجة في مشكاة .

واذا كانت هذه كلها انوارا بعضها فوق بعض فبالحرى أن تكون نورا على نور (١) .

ويظهر نور الله تعالى في الانسان واضحا جليا في جميع مراتبه فهو الموجود الوحيد الذى حق الله أن يكون خليفة الله في أرضه وهو المخلوق الوحيد الذى خلقه الرحمن تعالى على صورته .

وبعد ذلك يحاول الغزالى ان يستخدم منهجه التأويلى الذوقى الفريد فى تفسيره لبعض آيات سورة النور المباركة ، وتكاد الأنفاس تتوقف وهى تتابع التأويل الكشفى الشفيف الذى يقدمه لنا الغزالى وهو عندى قمة فى الجمال والشفافية الروحية العظيمة .. استمع اليه وهو يقول فى نص زائد فى الروعة والجمال :

هذا المثال انما يتضح لقلوب المؤمنين أو لقلوب الانبياء والأولياء لا قلوب الكفار : فإن النور يراد للهداية ، فالمصروف عن طريق الهدى باطل وظلمة بل اشد من الظلمة :- لان الظلمة لا تهدى الى الباطن ، كما لا تهدى الى الحق وعقول الكفار انتكست ، وكذلك سائر إدراكاتهم وتعاونت على الاضلال فى حقهم فمثالهم كرجل فى بحر لجى يغشاه موج

(١) المشكاة ٨١ .

من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض (النور : ٤٠) .

يقول الامام الغزالى «البحر واللجى هو الدنيا بما فيها من الاخطار المهلكة والاشغال المردية والكدورات المعمية ، والموج الاول موج الشهوات الداعية إلى الصفات البهيمية والاشتغال باللذات الحسية وقضاء الأوطار الدنيوية حتى أنهم يأكلون ويتمتعون كما تأكل الانعام ، وبالحرى أن يكون هذا الموج مظلما لان حب الشئ يعمى ويصم .

والموج الثانى من الصفات السبعية الباعثة على الغضب والعداوة والبغضاء والحقد والحسد والمباهاة والتفاخر والتكاثر .

وبالحرى ان يكون مظلما لان الغضب غول العقل ، وبالحري أن يكون هو الموج الأعلى لان الغضب فى الأكثر مستول على الشهوات حتى إذا هاج اذهل عن الشهوات واغفل عن اللذات المشتهاه . وأما الشهوة فلا تقاوم الغضب الهائج أصلا .

واما السحاب فهو الاعتقادات الخبيثة ، والظنون الكاذبة ، والخيالات الفاسدة التى صارت حجبا بين الكافرين وبين الإيمان ومعرفة الحق والاستضاءة بنور شمس القرآن والعقل : فإن خاصية السحاب ان يحجب اشراق نور الشمس . (١)

وهذا النص الغزالى المشرق بالكلمات الصادقة الروحانية الشفيفة يبين لنا بصدق كيف صور لنا حجة الاسلام الظلمة فى مقابل النور إننا نكاد نرى كل شئ من خلال الظلمة ، نكاد نلمس البحر اللجى العميق الذى لا ساحل له ، تلسمه بحواس البصيرة ، وهذه الظلمات يجليها لنا الغزالى حتى نتعقبها ، ظلمات حب الدنيا واكدارها ، وامواج الشهوات البهيمية والحسية ونوازع النفس الدنية من غضب وحقد وحسد وعداوة وبغضاء وتكبر وحب للمال والولد .

(١) المشكاة ٨٢ ، ٨٣ .

يقول الغزالى «واذا كانت هذه كلها مظلمة فبالحرى ان تكون ظلمات بعضها فوق بعض واذا كانت هذه الظلمات تحجب عن معرفة الاشياء القريبة فضلا عن البعيدة ، ولذلك حجب الكفار عن معرفة عجائب احوال النبى صلى الله عليه وسلم مع قرب متناوله وظهوره بأدنى تأمل ، فالبالحرى ان يعبر عنه بأنه لو اخرج يده لم يكد يراها» .

واذا كان منبع الانوار كلها من النور الاول الحق ، فبالحرى أن يعتقد كل موحد أن من لم يجعل الله له نورا فما له من نور (النور : ٤٠) . فيكفيك هذا القدر من اسرار هذه الاية فاقنع به . (١) .

وهذا فيض ربانى عظيم أتاه الله حجة الاسلام فأنار له الطريق فعرف معنى نور الحق وابعده عن ظلمات النفس المستغرقة فى بحر عميق كله ظلمات بعضها فوق بعض .

ونجد فى هذه الرسالة بصمات مذهب الاشراق وحكمة المشارقة الذوقية التى تعتمد فى حكمتها على البرهان والاستنباط .

كذلك استطاع ان يفرق بين عالم النور وعالم الظلمة ولكن الغزالى(٢) لم يَبْن على هذه التفرقة مذهبا ثنويا فى طبيعة الوجود كما بنى ثنوية الفرس ، بل على العكس نقض مذهبهم فى المشكاة وغيرها ، واعتبرهم جملة المحجوبين ، ولعله ومن سبقه من كبار متصوفة الإسلام كانوا اكثر تأثرا فيما قالوه عن النور والادراك الذوقى المنبعث من العالم النورانى بالافلاطونية الحديثة التى وردت إليهم ملخصة فى كتاب الربوبية المنسوب خطأ الى ارسطو .

والفصل الثالث فى المشكاة يدور حول معنى قوله صلي الله عليه وسلم إن لله سبعين حجابا من نور وظلمة لو كشفها لأحرقت سبحات وجهه كل من ادركه بصره ، وفى بعض الروايات سبعمائة وفى بعضها

(١) المشكاة . . ص ٨٣ .
(٢) المشكاة . . تصدير الدكتور أبو العلا عفيفى ص ٣٤ .

سبعين الفا .

ويؤكد الغزالى على أن المحجوبين من خلق الله ثلاثة اقسام : منهم من حجب بمجرد الظلمة ، ومنهم من حجب بالنور المحض ، ومنهم من حجب بنور مقرون بظلمة .

والقسم الاول :

المحجوبون بمحض الظلمة وهم الملاحدة الذين كفروا بالله تعالى ورسله وهؤلاء عند الغزالى صنفان[١] (صنف تشوف الى طلب سبب لهذا العالم فأحاله الي الطبع . والطبع عبارة عن صفة مركوزة فى الأجسام حالة فيها وهى مظلمة اذ ليس لها معرفة وإدراك ولا خبر لها من نفسها ولا مما يصدر منها وليس لها نور يدرك بالبصر الظاهر أيضا والصنف الثانى : هم الذين شغلوا بأنفسهم ولم يفرغوا لطلب السبب أيضا ، بل عاشوا عيش البهائم ، فكان حجابهم نفوسهم الكدرة ، وشهواتهم المظلمة ، ولا ظلمة أشد من الهوى والنفس : ولذلك قال الله تعالى «أفرأيت من اتخذ إلهه هواه» الجاثية : ٢٣ .

فهؤلاء عبيد اللذة ، يعبدونها ويطلبونها .. وأي ظلمة أشد من ذلك ؟ فقد حجب هؤلاء بمحض الظلمة .

وفرقة رأت أن غاية السعادات هى الغلبة والاستيلاء والقتل والسبى والأمر .. وهم محجوبون بظلمة الصفات السبعية .. وفرقة ثالثة رأت أن غاية السعادات كثرة المال واتساع اليسار .

وفرقة رابعة زعمت أن أعظم السعادات في اتساع الجاه والصيت وانتشار الذكر .. ويدخل في جملة هؤلاء جماعة يقولون بلسانهم «لا إله إلا الله» ، لكن ربما حملهم على ذلك خوف أو استظهار بالمسلمين وتجمل بهم أو استمداد من مالهم ، او لأ جل التعصب لنصرة مذهب الأباء

(١) المشكاة ص ٨٥ : ص ٨٧ باختصار .

فهؤلاء إذا لم تحملهم هذه الكلمة على العمل الصالح فلا تخرجهم الكلمة من الظلمات إلى النور ، بل «أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلي الظلمات» (البقرة : ٢٥٦) أما من أثرت فيه الكلمة بحيث ساءته سيئته وسرته حسنته فهو خارج عن محض الظلمة وإن كان كثير المعصية .

ومن ذلك النص يتبين لنا أن القسم الاول وهم المحجوبون بالظلمة المحضة وهم الملاحدة الذين أنكروا الله والبعث والحساب والنبوة ، واعتبروا الإنسان مادة فقط وفسروا الكون تفسيرا ماديا محضا وقالوا (إن هى الا حياتنا وما يهلكنا إلا الدهر) .

ومع الماديين الملاحدة يدخل في دائرتهم أصحاب النفوس الكثيفة وأصحاب الملذات الذين يعيشون الحياة طولا وعرضا كالبهائم ، فهؤلاء أقصى غاياتهم ، وأهدافهم في الحياة قضاء ملذاتهم ومتعهم الرخيصة .

كذلك يدخل في دائرة هؤلاء المحجوبون بالظلمة المحضة ذوى النزعات الوحشية ومحبى القتل والاستيلاء والغلبة والقهر وهؤلاء منزلتهم منزلة السباع والوحوش الضارية .

كذلك كل من رأي أن غاية الغايات المال والجاه والشهرة .. فكل هؤلاء نفوسهم مظلمة ، وكل هؤلاء محجوبون عن الله تعالى بمحض الظلمة .

والقسم الثانى :

هم المحجوبون بنور مقرون بظلمة وهم ثلاثة أصناف : صنف منشأ ظلمتهم من الحس ، وصنف منشأ ظلمتهم من الخيال ، وصنف منشأ ظلمتهم من مقايسات عقلية فاسدة والصنف الأول المحجوبون بنور مشوب بظلمة حسية وهم طوائف شتى أولهم عبدة الأوثان ، وآخرهم الثنوية .

فعبدة الأوثان عرفوا على العموم أن لهم ربا ولكن حجبتهم ظلمة الحس فصنعوا من المعادن النفيسة تماثيل اتخذوها آلهة ومنعهم من معرفة الله ظلمة الحس ذلك أن الحس ظلمة بالإضافه إلى العالم الروحانى العقلى .

والطائفة الثانية من المحجوبين بنور مشوب بظلمة طائفة اعتقدوا بأن لهم ربا وهو أجمل الأشياء .

فإذا رأوا إنسانا جميلا أو شجرا جميلا أو فرسا بديعا أو ما شابه ذلك سجدوا له وقالوا هذا هو ربنا ، فهؤلاء محجوبون بنور الجمال مع ظلمة الحس .

وطائفة ثالثة قالوا ينبغى أن يكون ربنا نورانيا في ذاته صاحب سلطان في نفسه فعبدوا النار واتخذوها ربا ، وهم محجوبون بنور السلطنة والبهاء .

وطائفة رابعة عبدوا ما هو موصوف بالعلو والارتفاع وكان معروفا بينهم الاشتغال بعلم النجوم وتأثيرات النجوم في الحياة فعبدوا النجوم والكواكب ، فهؤلاء محجوبون بنور العلو والاشراق والاستيلاء ، وهم من انوار الله تعالى .

وطائفة خامسة عبدوا الشمس وقالوا هى أكبر فهم محجوبون بنور الكبرياء مع بقية الانوار مشوبا بظلمة الحس .

ويقول الغزالى «وهناك طائفة سادسة عبدوا النور المطلق الجامع لجميع انوار العالم وزعموا أنه رب العالم والخيرات كلها منسوبة اليه . ثم رأوا فى العالم شرورا فلم يستحسنوا اضافتها الى ربهم تنزيها له عن الشر ، فجعلوا بينه وبين الظلمة منازعة وأحالوا العالم الى النور والظلمة وهم الثنوية» .(١)

والصنف الثاني المحجوبون ببعض الأنوار مشوبا بظلمة الخيال

(١) المشكاة : ٨٩ .

كالمجسمة والكرامية الذين عبدوا الها متجسما جالسا على العرش أوالذين يثبتون لله تعالى الجهة المخصوصة جهة الفوق فهم ينفون الجسمية الا الجهة المخصوصة بالفوقية .

ثم هناك صنفا ثالث وهم المحجوبون بالأنوار الالهية مقرونة بأدلة عقلية فاسدة وهم اصحاب الصفات أو الصفاتيةالذين يثبتون لله صفات كالسمع والبصر والكلام ويقيسونها على صفاتهم الانسانية وربما قال بعضهم كلامه صوت وحرف ككلامنا وبعضهم قال لا بل هو كحديث نفسنا ولا هو صوت ولاحرف ، فهم محجوبون بجملة من الانوار مع ظلمة المقايسات العقلية .

والقسم الثالث :

المحجوبون بمحض الأنوار وهم أصناف منهم الفلاسفة الذين اجتنبوا تعريفه بصفات البشر ونزهوه عن هذه الصفات وعرفوه بأنه مقدس منزه عن معانى الصفات وأن أثره في الكون واضح فهو «محرك السموات ومدبرها» .

وصنف آخر من هؤلاء المحجوبين ترقوا عن هذا الصنف وقالوا إن تحريك الأفلاك يكون عن طريق ملك يقوم بالفعل تعبدا وطاعة لله تعالي ولعلنا نجد في رأي هؤلاء الفلاسفة تأثرا بأرسطو ومذهبه المركب بآراء افلوطينية محدثة ، يقول الغزالى عن هذا الصنف والصنف الثالث ترقوا عن هؤلاء وقالوا : إن تحريك الأجسام بطريق المباشرة ينبغى أن يكون خدمة لرب العالمين وعبادة له وطاعة من عبد من عباده يسمى ملكا ، نسبته إلى الأنوار الإلهية المحضة نسبة القمر في الأنوار المحسوسة ، فزعموا أن الرب هو المطاع من جهة هذا المحرك ، ويكون الرب تعالى محركا للكل بطريق الأمر لابطريق المباشرة .. فهؤلاء الأصناف كلهم محجوبون بالانوار المحضة (١).

(١) مشكاة ص ٩١ .

.. وبعد سرده لآراء المحجوبين من المشبهة من المتكلمين والفلاسفة المسلمين المتأثرين بأرسطو والأفلوطينية المحدثة ورفضه لآرائهم ومنها قولهم ان الله هو المحرك عن طريق «عقل» محرك للأفلاك لانه يرتضى رأى «الواصلين» وهو «المطاع» هو الأمر الالهي القديم «لله الأمر من قبل ومن بعد» «الاله الخلق والأمر» «ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره» «إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ».

والآيات الشريفة السابقة تشير إلى أن أمر الله «المطاع» قديم قدم الله ، والأمر الالهي ليس هو الله ، ولا هو غيره وعلى ما يقول الأشاعرة ان الله عالما بعلم وقادر بقدرة ومتكلم بكلام ، ولكن علمه وقدرته وكلامه غير ذاته تعالى .

ولهذا فإن فكرة الغزالي وقوله «بالمطاع» هي فكرة جذورها أشعرية بالدرجة الأولى وتتصل اتصالا مباشرا في رأيهم في الكلام الإلهي وفي القرآن كلام الله تعالى ووحيه إلى نبيه ومصطفاه محمد صلى الله عليه وسلم ، ففكرته إسلامية زصيلة .

والأمر الآلهي «المطاع» قديم قدم الله تعالى لأنه من كلامه سبحانه وتعالى القديم .

ونسبة هذا المطاع إلى الله تعالى كنسبة الشمس إلى النور المحض .

ويقول الغزالي : ان هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ لسر لايحتمل هذا الكتاب كشفه :وان نسبة هذا (المطاع) نسبة الشمس فى الأنوار فتوجهوا من الذى يحرك السموات ومن الذى يحرك الجرم الأقصى ، ومن الذى أمر بتحريكها إلا الذى فطر السموات وفطر الجرم الأقصى وفطر الامر بتحريكها ، فوصلوا إلى موجود منزه عن كل ما أدركه بصر من قبلهم ، فاحرقت سبحات وجهه الأول الأعلى جميع ما أدركه بصر الناظرين وبصيرتهم فإذ وجدوه مقدسا منزها عن جميع ما وصفناه من قبل (١) .

(١) المشكاة : ٩٢ .

وينبغى أن يفهم جيدا قول الغزالى : إن هذا «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة والكمال البالغ ذلك أن الوحدانية الخالصة لا تحتمل التعدد اذ لاتعدد فيها فالوحدانية من صفات الله تعالى وحده أما الأمر الإلهى «المطاع» مبدأ التعدد في الوجود .

ولهذا قال : إن «المطاع» موصوف بصفة تنافى الوحدانية المحضة وهنا نلاحظ أن الغزالى كان منزها لله تعالى وموحدا خالصا ولم يفهم بعض المفكرين فكرة المطاع عند الإمام الغزالى .. ولهذا يقول ابن طفيل في رسالته حى بي يقظان : وقد توهم بعض المتأخرين (لعله يقصد ابن رشد) من كلام الغزالى الواقع في أخر كتاب المشكاة أمرا عظيما أوقعه في مهواة لا مخلص منها وهو قوله بعد ان ذكر اصناف المحجوبين بالانوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلين انهم وقفوا على ان هذا الموجود العظيم متصف بصفة تنافى الوحدانية المحضة .

فأراد أن يلزمه من ذلك بأنه يعتقد أن الأول الحق سبحانه في ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا (١) فالغزالى يقصد بالموجود العظيم المتصف بصفة تنافى* الوحدانية المحضة يقصد به «المطاع» ولا يقصد به الله سبحانه وتعالى والمطاع مجلى من مجالى الحق ومن هنا نفهم أن الغزالى لا يتبنى ولا يعتنق نظوية الصدور عند الحكماء والأفلوطينيين المحدثين .

وقد كانت رسالة المشكاة رسالة كشفية ذوقية إشراقية رائعة تعد إرهاصة كبرى للفلسفة الإشراقية عند فلاسفة الاشراق الذين أتوامن بعده وخاصة الفيلسوف الإشراقى الكبير قطب الدين الشيرازى .

وكان الغزالى صادقا مخلصا حين قال في ختام رسالته .. فهذا ما حضرنى في جواب هذه الأسئلة مع أن السؤال صادفنى والفكر منقسم ، والخاطر متشعب ، والهم إلى غير هذا الفن منصرف .

(١) حى بن يقظان لابن طفيل صفحة ٦٤ .

ومقترحي عليه أن يسأل الله تعالى العفو عما طغى به القلم ، أو زلت به القدم فإن خوض غمرة الأسرار الإلهية خطير واستشفاف الأنوار الإلهية من وراء الحجب البشرية عسير غير يسير.(١)

٣ ـ كيمياء السعادة

أصل هذا الكتاب بالفارسية (كيمياء السعادة والعلوم) (٢) والاصل الفارسي كبير يشابه إحياء علوم الدين ويقال انه ترجم فيه كتاب الإحياء فالأصل الفارسي يتألف من أربعة أركان :

(الركن الاول) فى العبادة وهو عشرة أصول : الأصل الأول اعتقاد أهل السنه والثانى طلب العلم ، والثالث الطهارة ، والرابع الصلاة ، والخامس الزكاة ، والسادس الصيام ، والسابع الحج ، والثامن تلاوة القرآن ، والتاسع الأذكار والدعوات ، والعاشر ترتيب الأوراد .

(الركن الثانى) فى آداب المعاملة وهو ايضا عشرة أصول : الأول فى آداب الطعام ، والثانى* آداب النكاح ، والثالث آداب الكسب والتجارة ، والرابع طلب الحلال ، والخامس آداب الصحبة ، والسادس آداب العزلة ، والسابع آداب السفر ، والثامن آداب السماع والوجد ، والتاسع آداب الامر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والعاشر رعاية الرعية

(١) المشكاة صفحة ٩٣ .

(٢) ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوى بأن النص الفارسى قد طبع فى كلكتا بدون تاريخ ، وطبع حجر فى «لولكنو سنة ١٢٧٩هـ ، سنه ١٢٨٢هـ ، سنة ١٢٨٨ هـ ، سنة ١٢٩١ هـ . وفى بمباى سنة ١٨٨٣م .
وقد ترجم النص الفارسى الى التركية بواسطة مصطفى الوانى المتوفى سنه ١٥٩١ .
وترجم إلى الانجليزية عن الترجمة التركية بواسطة هـ . أ . هومس طبعة نيويورك ١٨٧٣ .
وقد ذكر المرتضى فى اتحاف السادة المتقين الى أنه يوجد الى جانب النص الفارسى الكبير ، نص عربى صغير فى أربعة كراريس وعنده نسخه منه .
وقد طبع النص العربى ضمن مجموعة رسائل طبعها صبرى الكردى ، القاهرة سنة ١٣٢٨ ، سنه ١٣٤٣هـ .

وتسيير الولاية .

(الركن الثالث) فى رؤية عقبات الطريق وهو أيضا عشرة أصول : الاول فى رياضة النفس ، الثانى علاج الشهوة ، الثالث فى شر الكلام وآفات اللسان ، والرابع فى الغضب والحقد والحسد ، الخامس علاج حب الدنيا ، والسادس علاج حب المال ، السابع علاج حب الجاه والحشمة ، والثامن علاج الرياء والنفاق فى العبادة ، والتاسع علاج الكبر والعجب ، والعاشر علاج الغرور والغفلة .

(الركن الرابع) فى المنجيات ، وهو أيضا عشرة أصول : الاول فى التوبة والبعد عن المظالم ، والثانى فى الشكر والصبر ، والثالث فى الخوف والرجاء ، والرابع فى الفقر والزهد ، والخامس فى التوحيد والتوكل ، والسادس فى محبة الحق .

ورسالة كيمياء السعادة توضح كيمياء السعادة الجوانية أو الباطنية والنفسية التى تقابل الكيمياء المادية أو الظاهرية يقول الغزالى كيمياء السعادة لا تكون الا فى خزائن الله سبحانه وتعالى ، ولا تلتمس الا من حضرة النبوة وكل من طلبها من غير هذا السبيل فقد أخطأ الطريق . ومن هنا كان لا بد من يريد أن يظفر بهذه السعادة ، أن يتعرى من كل صفات النقص ويتزيا بكل صفات الكمال .

يقول الغزالى فى رسالة "كيمياء السعادة" إعلم أن سعادة كل شئ لذته وراحته ، ولذة كل شئ تكون بمقتضى طبعه ، وطبع كل شئ ما خُلقَ له فلذة العين فى الصور الحسنة ، ولذة الأذن فى الاصوات الطيبة ، وكذلك سائر الجوارح بهذه الصفة ، ولذة القلب الخاصة بمعرفة الله سبحانه وتعالى ، لأنه مخلوق لها ، وكل ما لم يعرفه ابن آدم اذا عرفه فرح به ، مثل الشطرنج اذا عرفها فرح بها ، ولو يُنهى عنها لم يتركها ، ولا يبقى عنها صبر وكذلك اذا وقع فى معرفة الله سبحانه وتعالى فرح بها ولم يصبر عن المشاهدة لأن لذة القلب المعرفة ، وكلما كانت المعرفة أكبر

كانت اللذة أكبر ، ولذلك فأن الانسان اذا عرف الوزير فرح ، ولو عرف المليك لكان أعظم فرحا ، وليس موجود أشرف من الله سبحانه وتعالى ، لأن شرف كل موجود به ومنه ، وكل عجائب العالم أثر من آثار صنعته فلا معرفة أعز من معرفته . ولا لذة اعظم من لذة معرفته وليس منظر أحسن من منظرحضرته ، وكل لذات وشهوات الدنيا متعلقة بالنفس وهي تبطل بالموت ولذة معرفة الربوبية متعلقة بالقلب ، فلا تبطل بالموت لان القلب لا يهلك بالموت ، بل تكون لذته أكثر ، وضوؤه أكبر ، لانه خرج من الظلمة الى الضوء .

وفى هذا النص نلاحظ أن الغزالى يؤكد على أمر هام وهو أن معرفة الله هى أعظم وأعز معرفة ، ومعرفته متعلقة بالقلب محل النور ، وفى هذا النص أيضا اشارة الى المعرفة الصوفية عن طريق الذهد فى متاع الدنيا وشهوات النفس التى تبطل بالموت أما المعرفة الأبدية فهى التى تتم عن طريق القلب لان القلب لا يهلك بالموت .

والغزالى يرى أن عين القلب تستطيع معرفة الله ليس فقط فى حال الموت أو فى حال النوم وانما ايضا تستطيع عين القلب أن تنفتح فى حال اليقظة وذلك عند من جاهد نفسه بالرياضة الروحية وتخلص من سائر الأخلاق المذمومة فإذا خلا العبد إلى نفسه ، وعطل طريق الحواس ، وفتح عين باطنه وسمعه ، ودأب على ذكر الله بقلبه لا بلسانه ، حتى يصبح ولا خير له من نفسه ولا من العالم ، ولا شئ يملك عليه باطنه غير مشاهدة الذات الإلهية فهناك عين القلب ، ويصبح الانسان قادرا على أن يبصر فى اليقظة ما يبصره فى النوم ، وهناك يشاهد الحقائق العليا ، والمناظر الجميلة الجليلة التي لا يمكن شرحها ووصفها وينكشف له ملكوت السموات والارض إذ أن حجاب القلب عن مطالعة ذلك العالم راجع إلى انه لم يكن قد فرغ بعد من شغل الحواس والاشتغال بالعالم المادى ، والإقبال على ما فيه من لذات حسية لا تلبث أن تعرض له حتى تزول . وكثيرا ما تعقب له آلاما .

هكذا يبين لنا الغزالى أن طريق السعادة الحقة طريق قلبى ذوقى يشعر فيه الأنسان "وإن الى ربك المنتهى" .

وان السعادة العظمى حين يفرغ الإنسان من الاشتغال بالمادة واللذات الحسية الزائلة وينشغل فى ذكر الله وعبادته ، وحين يتخلى عن الأخلاق المذمومة ويتحلى بالصفات المحمودة ، وحين يخلع عن قلبه الهوى والدنيا ويطهر نفسه من أدران الحقد والحسد والغل وسائر الاخلاق السيئة . . وقتها يشعر الانسان بالسعادة الروحية الحقة الخالصة . لا السعادة المادية الزائلة .

٤ - كتاب المضنون به على غير أهله : (١)

هذا الكتاب نسب خطأ للإمام الغزالى لانه يحوى أفكار ومبادئ بعيدة كل البعد عن أفكار ومبادئ الغزالى .

فمادة الكتاب لا يعقل أن تصدر عن حجة الاسلام الامام الغزالى فقد فند هذه الافكار الغريبة عن فكره الإسلامى الصحيح فى العديد من كتبه ولا يصح منه أن يعتقد ما دحضه وفنده من قبل .

فمثلا : الامام الغزالى الذى هاجم فى تهافت الفلاسفة فكرة تقدم العالم وأن القرآن صفة قديمة نجد فى الكتاب المنسوب إليه زورا يقول(٢) "الزمان لا يكون محدودا ، وخلق الزمان أمر محال ، فاليوم هو الكون الحادث فى اللغه ، وأيام الله حيث قال "وذكرهم بأيام الله" : مراتب مخلوقاته ومصنوعاته ومبدعاته من وجوه . منها قوله فى أربعة أيام يوم مادة السماء وصورتها ويوم كواكبها ويوم نفوسها ، وقوله خلق الارض

---

(١) طبع ضمن مجموعة بالقاهرة سنة ١٣٠٣ هـ ، سنه ١٣٠٩ هـ ، وبهامش «الانسان الكامل» للجيلى سنه ١٣٢٨ بالقاهرة ، وسنة ١٣٦٨ هـ طبعة صبيح وشرح الكتاب عبد الله بن عبد المجيد العبيدى «ت سنة ٧٤٩ هـ - ١٣٤٨م» وطبع بالقاهرة سنة ١٩١٣م.

(٢) المضنون به على غير أهله طبعة القاهرة ١٣٠٩ هـ (مصر المحروسة) ص ٢ وما بعدها .

في يومين . المادة والصورة ومادة السماوات ومادة بروجها صورة واحدة ، ومادة الارض مادة مشتركة بين ازواج وفحول وهى اخس لأنها مؤسسة تقبل كل ناكح .

وكما نعلم أن الغزالى رد على الفلاسفة والمتكلمين القائلين بقدم العالم فكيف يتناقض مع نفسه ويساير من كفرهم من قبل فى قولهم بقدم العالم .

وقد جانب الإمام الجليل ابن تيمية الصواب وأخطأ الرأى حين قال فى نقض المنطق ؛ وأما المضنون به على غير أهله ، فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه ، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه ، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا . ولكن كان هو وأمثاله - كما قدمت - مضطربين لا يثبتون على قول ثابت ، ولأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوقون به الى طريقة خاصة الخلق ، ولم يقدر لهم سلوك طريقة خاصة هذه الامة الذين ورثوا عن الرسول صلى الله عليه وسلم - العلم والايمان ، وهم أهل حقائق الايمان والقرآن . . وبهذا كان الشيخ أبو عمرو ابن الصلاح يقول - فيما رأيته بخطه - : أبو حامد كثير القول فيه ومنه . فأما هذه الكتب - يعنى المخالفة للحق - فلا يلتفت إليها ، وأما الرجل فيسكت عنه ويفوض أمره الى الله (١) .

لقد كان ابن تيمية مُتَحاملاً على الغزالى أكثر من اللازم حين ذكر أن الخبرة به وبحاله يعلمون أن هذا كله كلامه لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضا .

والحقيقة أن هذا الكتاب لا يمثل روح الغزالى ولا اسلوبه ، ولا فكره ولا مبادئ حجة الإسلام . فكل ما فيه أنكره الغزالى فى كتبه إنكارا تاما فكيف يعتنق ما يكفره . ويناقض ما كتبه فى التهافت والمقاصد .

(١) نقض المنطق لابن تيمية طبعة القاهرة ١٣٧٠ هـ / ١٩١٥ م صفحة ٥٥

كذلك نجد أن كتاب "المضنون" يحتوى على أن "القرآن صفة قديمة لا مثل له "ويقرر "نفى الصفات" فيقول الكتاب المنسوب خطأ "فصل : يتخيل بعض كثرة فى ذات الله تعالى عن طريق تعدد الصفات ، وقد صح قول من قال فى الصفات : "لا هو ولا غيره؛ وهذا التخيل يقع فى توهم التغير ، ولا تغاير فى الصفات . ومثال ذلك أن الانسان يعلم صورة الكتابة وله علم بصورة "بسم الله" التى تظهر تلك الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكمالها ان يكون المعلوم تبعا لها ، فإنه اذا حصل العلم بتلك الكتابة ظهرت الصورة على القرطاس ، وهذه صفة واحدة ، وكمالها أن يكون المعلوم تبعا لها ، فانه اذا حصل العلم بتلك الصفة من حيث أن المعلوم اتكشف بها يقال لها علم ، ومن حيث ان الالفاظ تدل عليها يقال كلام ، فان الكلام عبارة عن مدلول العبارات . ومن حيث أن وجود المعلوم تبع لها يقال لها القدرة ، ولا تغاير ها هنا بين العلم والقدرة والكلام .

فان هذه صفة واحدة فى نفسها ، ولا تكون هذه الاعتبارات الثلاث واحدة (١).

وبالنسبة لرؤية الله نجد أن الكتاب يقرر ورود الاذن اطلاق ذلك فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت ربى فى أحسن صورة ، وهذا مما ورد فى الأخبار ان الله خلق آدام على صورته (٢) .

ومن ذلك كله يتضح لنا أن كتاب المضمون به على غير أهله ليس للامام الغزالى .

فالغزالى صاحب تهافت الفلاسفة ، ومقاصد الفلاسفة ، وفضائح الباطنية ، والمنقذ من الضلال ، وإحياء علوم الدين ، والأربعين فى اصول الدين ، ومنهاج العابدين إلى جنه رب العالمين ، . . والغزالى "حجة الاسلام" لا يمكن أن يقول بعملية الخلق من عدم وان الزمان قديم ، ويؤيد

(١) ، (٢) المضنون ص ٥ ، ص ٦ ، ص ١٦ .

مذهب الصدور الفيضي ، كيف ينفى الصفات وهو الذى نقد الفلاسفة والمتكلمين والباطنيه فى هذه الاقوال وبين تهافتهم وأخطاءهم العقدية والفلسفية فى قولهم بأن الله يعلم الكليات ولا يعلم الجزيئات ، وقولهم أن العالم قديم ، وقولهم بجسدية العالم الآخر .

ولا شك عندنا أن هذا الكتاب مدسوس على الامام الغزالي رضي الله عنه يقول السبكى فى طبقات الشافعية (١) "المضنون به على غير أهله "معاذ الله أن يكون له لأنه اشتمل على التصريح بقدم العالم ، ونفى العلم القديم بالجزئيات ، ونفى الصفات ، وكل واحدة من هذه يكفر الغزالى قائلها وأهل السنه أجمعون فكيف يتصور أنه يقولها ؟ وهو عندى وفى المسامرة - انه من تأليف على بن السبيتى وكذلك صرح صاحب "تحفة الارشاد" بانه موضوع عليه ، وقد صنف أبو بكر محمد بن عبد الله المالقى كتابا فى رده وتوفى سنه خمسين وسبعمائة" .

لقد كان للغزالى اعداء أرادوا به سوءا فدسوا عليه ما يكره ونسبوا إليه افكارا هاجمها من قبل هجوما عنيفا وبين خطأهم وكشف عن ضلالها يقول الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى (٢) كم دست كتب ووضعت على غير اصحابها . لمحاربتهم والتشهير بهم ، كما فعلوا في حق أبى بكر الرازى ، إذ زوروا عليه كتابا فى تكذيب الاعتقاد بالأولياء ، وقد حدث مثل هذا فى حق الشعرانى إذ تناول أحد خصومه كتابه "البحر المورود" فحذف منه فصولا ووضع بدلها ما تشتم منه ريح الكفر ، ثم نشره منسوبا الى الشعرانى ، باعتباره كتابه الحقيقي ؛ فاضطر الشعرانى فى سبيل الدفاع عن نفسه أمام علماء القاهرة ؛ أن يبرز النسخة الاصلية التى لديه عن كتابه ، والتى تحوى تواقيعهم ؛ وقد حدث هذا أيضا فى حق أبن عربى ، وتصدى الشعرانى للدفاع عنه ؛ وكان بعض خصومه قد دسّ عليه فى كتابه "الفتوحات" ما يدل على

(١) طبقات الشافعية للسبكى جـ ٤ ص ١٣١ .
(٢) كتاب الغزالى للدكتور الرفاعى جـ ٢ صفحة ٢١٣ .

الكفر ، وقد قاسي الامام فخر الدين الرازي شيئا من هذا القبيل ، وقد تعددت هذه الدسائس على كتب المؤلفين بفعل خصومهم والناقمين عليهم ، حتى وضع على بن محمد المصري قائمة باسمائهم . واذا كان الأمر كذلك ، فلا ينبغي أن نعجب من وقوع هذا فى حق الغزالى أيضا ، وقد أكد المستشرق الألماني " جولد زيهر" أن ذلك وقع بالفعل .

واعتقد الآن بعد هذه النظرة الشاملة نستطيع أن ننتهى إلى نتيجة مناسبة وهي أنه وضح لنا بلا ادني شك أن "المضنون به على غير أهله "نُسب خطأ وزورا الي الامام الغزالي وأنه ليس من كتبه ولا من تأليفه .

« المبحث الثانى »

مشكلة المعرفة اليقينية عند الغزالى

أولا : منهج الشك عند الغزالى

١ - البحث عن الحق واليقين :

الحقيقة أن البحث عن الحق كان ديدن الغزالى منذ عنفوان شبابه ،وقبل بلوغه العشرين .

فقد تميز الغزالى بعقلية ناقدة فذة تستطيع ان تحلل الأشياء منطقيا ليصل من المقدمات إلى نتائج صائبة .. يقول في منقذه من الضلال «إن اختلاف الخلق في الأديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، بحر عميق غرق فيه الاكثرون ، وما نجا منه إلا الأقلون . ولم أزل في عنفوان شبابى – منذ راهقت البلوغ – أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمراته خوض الجسور لاخوض الجبان الحذور ، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكله ، وأتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على باطانتة ، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إلية حاصل عبادته ، ولا زنديقا معطلا إلا وأتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته فى تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبى وديدنى ، من أول

أمري وريعان عمري غريزة وفطرة من الله وضعتا فى جبلتى ، لا باختيارى وحيلتى ، حتى انحلت عنى رابطة التقليد ، وانكسرت على العقائد الموروثة على قرب عهد بسن الصبا (١) .

ولا شك عندنا أن الغزالى كان يحاول البحث عن الحقيقة بكل المدارك والمعارف الحسية والعقلية والقلبية . ولأنه عقلية من طراز فريد للغاية فإنه كان يريد المعرفة الحقيقية والعلم الصحيح بحقائق الأمور . ويقول فى ذلك إنما مطلوبى العلم بحقائق الأمور ، فلابد من طلب حقيقة العلم ماهى ؟ فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه امكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين مقارنه لو تحدى باظهار بطلانه مثلا من يقلب الحجر ذهبا والعصا ثعبانا ، لم يورث ذلك شكا وإنكاراً . . ثم علمت أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقينى (٢) .

انه يريد العلم الذى يحدث معه الأمان النفسى والعقلى والقلبى العلم الذى لا يورث الشك والإنكار بل الطمأنينة والاستقرار .

وكى يصل الى الحق ويطمئن الى معرفته كان لابد من أن يستخدم منهج الشك ليصل الى احقيقة والأمان .

ولقد كان الغزالى يعيش فى عصر يموج بالفرق والفتن مما ساعده على بزوغ الشك المنهجى عنده فهناك فرق متعددة كل فرقة منها ترى أنها على الحق وأنها الناجية وان منهجها هو الذى يؤدى بالانسان الى الامان والطمأنينة .

لكن ماهى وسيلة الإدراك والمعرفة هل يمكننا بالحس أن نصل الى

(١) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ١٦ .
(٢) المنقذ من الضلال للغزالى صفحة ٣٧

معرفة حقة يقينية لا شك بعدها . هل يمكن للعقل أن يصل بالإنسان الى بر الأمان ام أن هناك وسائل أخرى للمعرفة الحقة اليقينية .

وبالنسبة للمحسوسات يقول الغزالى حين اختبرها "اقبلت بجد بليغ أتأمل فى المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكننى أن أشكك نفسى فيها ، فانتهى بى طول التشكيك الى أنه لم تسمح نفسى بتسليم الأمان فى المحسوسات ، وأخذ يتسع هذا الشك فيها ويقول : من أين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك ، وتحكم بنفى الحركة ؟ ثم بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وأنه لم يتحرك دفعة بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حالة وقوف ، وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه اكبر من الأرض فى المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس بأحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته " فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات " .

إن هذا الامتحان السريع للمحسوسات أكد للغزالى أن شكه فيها كوسيلة من وسائل الإدراك والمعرفة اليقينية - كان - شكا صحيحا . ذلك أن الحس قد يحكم على المتحرك بأنه ثابت واقف ، وعلى الكبير جدا بانه صغير . ومن هنا فإنه لا يجوز للحس أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقينى .

وبعد أن تبين للغزالى أن الحس لا يمكن أن يكون طريقا لمعرفة العلم اليقينى وجدناه يحاول أن يختبر العقل فيقول قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضا فلعله لا ثقة إلا بالعقليات التى هى من الأوليات ، كقولنا : العشرة أكثر من الثلاثة والنفى والاثبات لا يجتمعان فى الشئ الواحد ، والشئ الواحد لا يكون حادثا قديما ، موجودا معدوما واجبا محالا . فقالت المحسوسات : لم تأمن أن تكون ثقتك بالعقليات كثقتك

بالمحسوسات ، وقد كنت واثقا بى ، فجاء حاكم العقل فكذبنى ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقى ؟ فلعل وراء إدراك العقل حاكما آخر ، إذا تجلى كذّبَ العقل فى حكمه كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس فى حكمه ، وعدم تجلى ذلك الإدراك ، ولا يدل على استحالته . فتوقفت النفس فى جواب ذلك قليلا ، وأيدت إشكالها بالمنام وقالت : أما تراك تعتقد فى النور أموراً وتتخيل أحوالا وتعتقد لها ثباتا واستقرارا ، ولا تشك فى تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فَبِم تأمن أن يكون جميع ما تعتقده فى يقظتك بحس أو عقل هو حق بالإضافة إلى حالتك التى أنت فيها ، لكن يمكن أن تطرأ عليك حالة تكون نسبتها إلى يقظتك ، كنسبة يقظتك إلى منامك ، وتكون يقظتك نوما بالإضافة إليها ! فإذا وردت تلك الحالة تيقنت أن جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما تدعيه الصوفية أنها حالتهم : اذ يزعمون أنهم يشاهدون فى أحوالهم التى لهم إذا غاصوا فى أنفسهم وغابوا عن حواسهم أحوالا لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هى الموت إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "الناس نيام اذا ماتوا انتبهوا" فلعل الحياة الدنيا نوم بالإضافة إلي الآخرة ، فاذا مات ظهرت له الأشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك "فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد" فلما خطرت لى هذه الخواطر وانقدحت فى النفس حاولت لذلك علاجا فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الأولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل ، فأعضل هذا الداء ، ودام قريبا من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال ، لا بحكم المنطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظر دليل وترتيب كلام بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ،

وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة .

وكانت تجربة المرض فرصة رائعة منحها الله لعبده العالم الباحث عن اليقين كي يعرف بنفسه طريق الأمان فقد قذف الله تعالى فى صدره نورا كشف له حقيقة أكثر المعارف ، وكانت رحمة الله به واسعة حانية فهداه سبحانه وتعالى الى "نور على نور" ، النور الاول نور العقل والنور الثانى نور البصيرة وكشف الله تعالى عنه غطاءه وشكه ، وأدرك أن من يهبه الله طريق الذوق والكشف يستطيع أن يصل الى العلم اليقيني الذى لا شك بعده . ولا يستطيع أن يصل الى مرتبة الكشف الا الواحد بعد الواحد ممن اختارهم الله وقذف فى صدورهم نورا هو مفتاح المعرفة ودرب الامان النفسى والعقلى والقلبى .

يقول الغزالى "وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين ، ولم يك ذلك بنظر دليل ، ولا ترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر ، وذلك النور هو مفتاح اكثر المعارف فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة ولما سئل رسول الله تعالى عليه السلام عن "الشرح" ومعناه فى قوله تعالى "فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للأسلام" قال : "هو نور يقذفه الله تعالى فى القلب" فقيل : وما علامته ؟ فقال : التجافى عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود .

ويفرق الغزالى جيدا بين المعرفة عن طريق الحواس والمعرفة عن طريق القلب فيقول فى روعة وجمال لا حد له فى معارج القدس (١) «لو فرضنا حوضا محفورا فى الأرض ، احتمل أن يساق اليه الماء من فوقه بانهار تفتح فيه ، ويحتمل أن يحفر أسفل الحوض ويرفع منه التراب الى

(١) معارج القدس للغزالى صفحة ١٣٤ طبعة القاهرة ١٩٢٧ .

أن يقرب من مستقر الماء الصافى ، فينفجر الماء من أسفل الحوض ، ويكون ذلك الماء أصفى وأدوم ، وقد يكون أغزر وأكثر ، فلذلك القلب مثل الحوض ، والعلم مثل الماء ، وتكون الحواس الخمس مثل الأنهار . وقد يمكن أن تساق العلوم الى القلب بواسطة أنهار الحواس والاعتبار بالمشاهدات حتى يمتلئ علما . ويمكن أن تسد هذه الأنهار بالخلوة والعزلة وغض البصر ويعمد إلي عمق القلب بتطهيره ورفع طبقات الحجب عنه حتى تنفجر ينابيع العلم من داخله» .

يقول الاستاذ ديبور(١) (لاشك أن الغزالى أعجب شخصية فى تاريخ الإسلام ومذهبه صورة لشخصيته ، فلقد أدرك الغزالى فى تصوفه أن المسألة الدينية أعمق مما ادركها فلاسفة عصره ، فقد كان هؤلاء الفلاسفة عقليين فى نزعتهم شأن فلاسفة اليونان ، فاعتبروا أن مقررات الدين ثمرة للقوة المتخيلة أو الوهم من جانب الشارع ، ورأوا أن دين المتدينين اما انقياد وطاعة عمياء لدى البعض ، أو هو ضرب من المعرفة فيه حقائق أدنى مرتبة من حقائق الفلسفة لدى البعض الآخر وجاء الغزالى فبين أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو تجربة يحسها المتدين بروحه احساسا حيا ، ويمارسها عمليا) .

ومن هنا تكون الإرادة الحرة للإنسان المؤمن هى أخص سمات التجربة الذوقية للوصول إلى المعرفة اليقينية . فالإيمان الذوقى يؤدى إلى التحرر ، والعبودية لله وحده يعنى التحرر من عبادة العبيد ومن الطواغيت المختلفة ومعنى أنى اتذوق التجربة أنى أمارس إرادتى بحرية ومعنى أنى حر أنى موجود وجودا حقيقيا وكلما اقتربت من الله تعالى ازدادت حريتى يقينا وإذا ما وصلت إليه كنت الحر على الحقيقة وكنت عبد الله المحب للحقيقي والواصل إلى اليقين .

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة د . محمد عبد الهادى أبو ريدة ص ٢٧٢ .

٢- الشك بين الغزالى وديكارت :

الحقيقة أن الغزالى قد استفاد من شكه المنهجى فائدة عظيمة أدت به إلى المعرفة اليقينية . وبهذا المنهج الشكى المتميز سبق الغزالى ديكارت صاحب الشك المنهجى المعروف فتجارب ديكارت "قوضت - شيئا فشيئا كل ما لديه من ثقة فى الحواس كأداة للمعرفة الصحيحة ، اذ لاحظ كثيرا أن الابراج التى تبدو للرائى مستديرة عن بعد ، تبدو فى نظره مربعة متى كان قريبا منها ، وأن التماثيل الضخمة التى تعلو قممها ، تبدو صغيرة الحجم متى نظر اليها من أسفل . بل لاحظ فى كثير من المناسبات أن احكامه التى يقيمها على حواسه الداخلية كثيرا ما تخطئ . وقد عرف من أشخاص بترت سيقانهم أو اذرعتهم أنه كان يلوح لهم أحيانا أنهم يحسون ألما فى العضو المبتور منهم ، فدعاه هذا إلى الاعتقاد بانه لا يستطيع أن يكون على يقين من وجود ألم حقيقى يصيب عضوا فى جسمه حتى ولو أحس هذا الألم .

هذا وهناك سببين آخرين يبرران الشك فى المعرفة الحسية .

أولهما : انه ما أحس شيئا فى يقظته الا ظن أن فى وسعه أن يحسه أثناء النوم ، وهو لا يظن أن ما يحسه فى نومه صادر بالفعل عن أشياء خارجية لهذا لم يجد مبررا يسوغ له تصديق ما يحسة فى يقظته أكثر من تصديقه ما يحسه أثناء نومه ..

وثانى السببين : أنه كان قد زعم أنه لا يعرف بعد خالقه - وهو ضامن الصدق فى تفكيره - ولهذا لم يجد ما يمنعه من الشك فى الطبيعة ، والظن بأنها هيأته أو خلقته بحيث يخطئ حتى فيما يلوح له أنه أصح الاشياء واصدقها (١) .

ومن خلال هذه الرؤية الديكارتية للشك نلتمس بسهولة للغاية مدى ما تحتويه من منهج الغزالى للوصول إلى المعرفة اليقينية ، فيكاد

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ . ط ٢ .

ديكارت أن يستخدم - الى حد كبير - نفس منهج الغزالى فى الشك من أجل تأسيس المعرفة الحقة

وبالإضافة الى وجود التشابه القوى بين الغزالى وديكارت فى مسألة المعرفة فإنه يوجد أيضا تشابه بينهما فى مسألة موقف العقل من الوحى .

فمن المعروف أن ديكارت (نحى حقائق الوحى عن مجال العقل لانها - فى رأيه - لا تدرك الا بمدد من السماء خارق للعادة)(١) .

وكما نعلم أن العقل عند الغزالى - قاصر على إدراك المسائل الالهية التى لا نعرفها الا من خلال خبر السماء الموحى لنبى معصوم . ومن هنا فإن الفلاسفة عنده لم يتمكنوا من إدراك شئ فى علومهم الإلهية لأن براهين الالهيات عندهم ليست قاطعة كبراهين الهندسيات .

وقد بين الغزالى بوضوح وجلاء أن الشك المنهجى طريق للإدراك والمعرفة اليقينية الأصيلة ، وجلى لنا حقيقة كبيرة وهى أنه من لم يشك لا يصل إلى المعرفة الحقة ولا يعرف اليقين التام .

كما أظهر لنا أن العقل الإنسانى لا يستطيع أن يدرج الحقائق الكبرى لقصوره عن ذلك ولأن فوقه قوة أعظم ولهذا حجمَّ العقل فى استخدام المناهج الفلسفية ، وبين أن المنهج الذوقى الصوفى لما فوق العقل .

وقد انتهى ديكارت إلى ما أنتهى اليه الغزالى من قبله بعدّة قرون من أن الناس تستمد الثقة فى قدرة الحواس والعقل نتيجة الإيمان بوجود الله تعالى وثقتهم فى رحمته . فديكارت يؤمن إيمانا قويا بأن الله تعالى لا يمنحنا آلات خادعة مضللة ، حقيقة أنها قد تعطينا معرفة ليست يقينية لكنها - أى الحواس والعقل - وسيلتان من وسائل المعرفة منحهما الله للإنسان ولابد من استخدامهما استخداما مناسبا .

(١) المرجع السابق صفحة ٢٣٥ .

يقول ديكارت فى تأملاته"(١) كل ما تلقيته حتى اليوم وآمنت بأنه أصدق الأشياء ، وأوثقها ، قد اكتسبته من الحواس . أو بواسطة الحواس ، غير أنى جربت هذه الحواس فى بعض الأحيان فوجدتها خداعة ، ومن الحكمة أن لا نطمئن كل الأطمئنان إلى من خدعونا ولو مرة واحدة .

لكن قد يقال : لئن كانت الحواس تخدعنا بعض الأحيان فى أشياء صغيرة جدا ، وبعيدة جدا عن متناولنا فقد نقع على أشياء كثيرة أخرى ، لا نستطيع أن نشك فيها شكا يقبله العقل ، وان كنا نعرفها بطريق الحواس .

مثال ذلك أنى ههنا جالس قرب النار ، ولابس عباءة المنزل ، وهذه الورقة بين يدى ، وأشياء أخرى من هذا القبيل .

وكيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين ، يداى ، وهذا الجسم جسمى ، اللهم إلا إذا أصبحت مثيلا لبعض المخبولين الذين اختلت أدمغتهم وغشى عليها بسبب الأبخرة السوداء ، الصاعدة من المرة ، فما ينفكون يؤكدون أنهم ملوك ، فى حين أنهم فقراء جدا ، وأنهم يلبسون ثيابا موشاة بالذهب والإرجوان ، فى حين أنهم فى غاية العرى ، أو يتخيلون أنهم جرار ، وأن لهم اجساما من زجاج .

ألا أنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافا وخبلا اذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم .

ولكن ينبغى على هنا أن أعتبر أنى انسان ، وان من عادتى لذلك أن أنام ، وأن أرى فى أحلامى عين الأشياء التى يتخيلها هؤلاء المخبولين فى يقظتهم ، بل قد أرى أحيانا أشياء أبعد عن الواقع مما يتخيلون .

---

(١) التفكير الفلسفى للدكتور سليمان دينا رحمه الله رحمه واسعة ص ١١٢ : ص ٢١٤ نقلا عن التأملات لديكارت صفحات ٤٥ ، ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ .

كم من مرة وقع لى أن أرى فى المنام أنى فى هذا المكان ، وأنى لابس ثيابى وأنى قرب النار ، مع أنى أكون فى سريرى متجردا من ثيابى .

يبدو لى الان أنى أنظر إلى هذه الورقة بعينين نائمتين ، وأن هذا الرأس الذى أحمله ليس ناعسا ، وأنى انما أبسط هذه اليد وأقبضها عن قصد ووعى .

إن ما يقع فى النوم لا يبدو مثل هذا كله وضوحا وتمييزا ، ولكن عندما أطيل التفكير فى الأمر ، أتذكر أنى كثيرا ما انخدعت فى النوم بأشباه هذه الرؤى ، وعندما أقف عند هذا الخاطر أرى بغاية الجلاء أنه ليس هنالك أمارات يقينية ، نستطيع بها أن نميز بين اليقظة والنوم تمييزا دقيقا ، فيساورنى الذهول ، وإن ذهولى لعظيم ، حتى أنه يكاد يصل إلى اقناعى بأنى نائم .

وإذن فلنفرض الآن أننا نائمون وأن جميع هذه الخصوصيات من فتح العين وهز الرأس وبسط اليدين ، وما شابه ذلك ، إن هى الا رؤى كاذبة

ولنذهب إلى أنه لم تكن أيدينا ولا أجسامنا بأكملها ، على نحو ما نراها ،لكن لا بد على الأقل من أن نسلم بأن الأشياء التى تتمثل لنا فى النوم ، كلوحات وصور ، لا يستطاع تكوينها الا على غرار شئ واقعى وحقيقى .

وإذن فهذه الأشياء العامة على الاقل - كالعينين والرأس واليدين والجسم بأكملة - ليست أشياء متخيلة بل هى واقعية وموجودة .

فالحقيقة أن المصورين ، وان كانوا يبذلون ما أتوا من مهارة فى تمثيل بنات البحر ، والتيوس الآدمية ، فى أشكال ، هى غاية فى الغرابة ، والبعد عن المألوف ، لا يستطيعون مع هذا أن يضفوا عليها أشكالا وطبائع جديدة كل الجدة ولكنهم إنما يصنعون مزيجا من أعضاء حيوانات مختلفة ، أو ان تيسّر لهم من شطط الخيال مما يحملهم على أن يبتدعوا شيئا يبلغ من جدته أن أحدا لم ير قط له مثيلا ، ويكون عملهم

لذلك شيئا مختلفا أصلا ، وزائفا اطلاقا ، فلابد على الأقل من أن تكون الألوان التى يؤلفونها منها حقيقية .

ويمكن أن يقال ، قياسا على السبب المتقدم : أنه لو صح أن هذه الأشياء العامة - أعنى الجسم والعينين والرأس واليدين وما شابه ذلك - يمكن أن تكون خيالية ، فإنه لا مناص مع ذلك من الإقرار بأن هنالك على الأقل أشياء أخرى أبسط وأشمل منها ، وهى حقيقية وموجودة ، ومن امتزاجها على نحو ما تمتزج بعض الالوان الحقيقية ، يتكون كل ما يقوم فى فكرنا من صور الأشياء ، سواء كانت هذه الصور حقيقية وواقعية ، أو مختلفة ووهمية .

ومع ذلك فإن معتقدا قد رسخ فى ذهنى منذ زمن طويل ، وهو أن هنالك إلها قادرا على كل شئ ، وهو صانعى وخالقى على نحو ما أنا موجود .

فما يدرينى لعله قضى بأن لا يكون هنالك أرض ولا سماء ، ولا جسم ممتد ، ولا شكل ولا مقدار ولا مكان ، ودبر مع ذلك أن أحسّ هذه الأشياء جميعا وان تبدو لى موجودة على نحو ما أراها .

بل لما كنت أرى أحيانا أن غيرى يغلطون فى الأمور التى يحسبون أنهم أعلم الناس بها ، فما يدرينى لعله قد قدر ، أن أغلط أنا أيضا ، كلما جمعت أثنين وثلاثة ، أو أحصيت أضلاع مربع ، أو أطلقت حكما على شئ أسهل من ذلك لو أمكن أن نتصور شيئا أسهل منه .

ولكن لعل الله لم يشأ اضلالى على هذا النحو ، لانه سبحانه كريم رحيم .

ومن قبل "ديكارت" عرض الغزالى نفس المسألة ، ونفس الحل ، ونص الغزالى فى هذا الشأن قد ذكرناه من قبل . ومن الافضل أن نؤكده

مرة ثانية قال الغزالى :

(فانتهى بى طول التشكيك الى أن لم تسمح نفسى بتسليم الامان فى المحسوسات ، ومن اين الثقة بها ، وأقوى الحواس حاسة البصر ، وهى تنظر الى الظل فتراه واقفا غير متحرك وتحكم بنفى الحركة ثم بالتجربة والمشاهدة بعد ساعة تعرف أنه متحرك ، وانه لم يتحرك دفعه بغتة ، بل على التدرج ذرة ذرة ، حتى لم تكن له حاله وقوف .

وتنظر الى الكوكب فتراه صغيرا فى مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على أنه اكبر من الارض فى المقدار .

هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيبا لا سبيل الى مدافعته .

ويحتمل ان ديكارت قد قرأ النص اللاتينى للمنقذ وعرف رأى الغزالى ومنهجه الشكى من خلال احد معارفه أو اصدقائه ممن اطلعوا على فكر الغزالى واعجبوا به .

٣ - الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة :

لقد سبق الغزالى بفكره المبدع أصحاب الوضعية الحديثة .

فقد وافقوه فى مسألتين هامتين :

أولاهما : أن الغزالى وأصحاب الوضعية الحديثة يتفقان فى مسألة يقينية العلوم الصورية فالإثنان يعتبران العلوم الرياضية والمنطقية علوم يقينية .

والمسألة الثانية : ان الاثنين يتفقان فى اعتبار العلوم التى تقوم على التجربة والمعرفة التجريبية علوم احتمالية أو ترجيحية وليست العلوم التجريبية ترقى إلى مرقى اليقين فى العلوم الصورية .

وقد اختلف أصحاب الوضعية الحديثة مع الغزالي في مسألة واحدة وهى أنه يقول بالمعرفة الغيبية "الميتافيزيقا" كأساس من أسس المعرفة ويرد الغزالى المعرفة الغيبية إلى خبر السماء والوحى أى أنه يردها إلى خبر النبى المعصوم .

أما أصحاب الوضعية الحديثة فإنهم ينكرون الميتافيزيقا (المعرفة الغيبية) إنكارا تاما .

والغزالى كما أشرنا يعرف تماما أن المعرفة التجريبية عن طريق الحواس معرفة ترجيحية احتمالية لا ترقى إلى درجة اليقين الكامل وهو لا يرى ترابطا بين السبب والمسبب وأنه ليس ضروريا الاقتران بين الإثنين أى بين السبب والمسبب ولا إثبات أحدهما متضمنا لإثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفي الآخر ، فإن اقترانهما لما سبق من تقدير الله سبحانه وتعالى . ولنستمع إلى الغزالى وهو يقول هذه المعانى فى نص رائع بديع (١) "الاقتران بين ما يعتقد فى العادة سببا وبين ما يعتقد مسببا ليس ضروريا عندنا ! بل كل شيئين ليس هذا ذاك ولا ذاك هذا ولا إثبات أحدهما متضمنا لاثبات الآخر ، ولا نفيه متضمنا لنفى الآخر ، فليس من ضرورة وجود أحدهما وجود الآخر ، مثل الرى والشرب ، والشبع والأكل ، والاحتراق ولقاء النار ، والنور وطلوع الشمس ، والموت وجز الرقبة ، والشفاء وشرب الدواء ، وإسهال البطن واستعمال المسهل ، وهلم جرا إلى كل المشاهدات المقترنات فى الطب والنجوم والصناعات والحرف .

فإن اقترانها لما سبق من تقدير الله سبحانه ، يخلقها على التساوى لا لكونه ضروريا فى نفسه ، غير قابل للفوت ، بل فى المقدور خلق الشبع دون الأكل ، وخلق الموت دون جز الرقبة ، وإدامة الحياة مع جز الرقبة . وهلم جرا الى جميع المقترنات .

---

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى جـ ١ ص ٤٤ و ص ٤٥ .

وأنكر الفلاسفة امكانه وادعوا استحالته .

والنظر فى هذه الأمور الخارجية عن الحصر يطول ، فلنعين مثالا واحدا هو الاحتراق فى القطن مثلا عند ملاقاة النار ، فإنا نجوز وقوع الملاقاة بينهما دون الاحتراق ، ويجوز حدوث انقلاب القطن رمادا محترقا دون ملاقاته النار وهم ينكرون جوازه .

وللكلام فى هذه المسألة ثلاثة مقامات :

المقام الأول : أن يدعى الخصم أن فاعل الاحتراق هو النار فقط ، وهو فاعل بالطبع لا بالاختيار ، فلا يمكنه الكف عما هو فى طبعه ، بعد ملاقاته لمحل قابل له .

وهذا مما ننكره ، بل نقول : فاعل الاحتراق - بخلق السواد فى القطن والتفرق فى أجزائه ، وجعله حُراقا رمادا - وهو الله تعالى ، اما بواسطة الملائكة او بغير واسطة ، فأما النار - وهى جماد - فلا فعل لها .

فما الدليل على أنها الفاعل ، وليس لهم دليل ، الا مشاهدة حصول الاحتراق عند ملاقاة النار ، والمشاهدة تدل على الحصول عندها ، ولا تدل على الحصول بها ، وأنه لا علة له سواها . . . الخ)

والواقع أن الغزالى يريد أن يقول أن لا فاعل فى الحقيقة إلا الله ولا يجوز نسبة اليقين فهو يقين الذى ما بعده يقين . ولهذا لا يجوز نسبة العلية إلا اليه سبحانه وتعالى فهو الفاعل على الحقيقة وهو العلة الأولى وهو كما يقول الغزالى قبل وجود العالم كان المريد موجودا ، والإرادة موجودة ، ونسبتها إلى المراد موجودة ، ولم يتجدد مريد ، ولم تتجدد إرادة ، ولا تجدد للإرادة نسبة لم تكن قبل .

ويقول الغزالى« أن الله يجوز أن يخلق ما يسمى علة بدون أن

يخلق ما يسمى معلولا »(١) . وهذا ما أشار اليه فيما بعد مالبرانش (ت١٦٧٧م) وهيوم (ت١٧٧٦م) .

وقد قال هيوم "بأن التجربة ترينا فقط أن واقعة ما ينتج عنها أخرى دون أن يبين لنا ارتباطا ضروريا بينهما ، أى الارتباط الذى يراد بهذا التعبير علاقة السببية »(٢) . بل ان "مالبرانش" يصرح بأن السبب الحقيقى الذى الشئ به هو الله وحده ، فإن السبب الحقيقى فى رأيه هو ما يرى الفعل ارتباطا ضروريا بينه وبين ما ينتج عنه ، وهذا ما لا يراه العقل إلا لله الذى يكون عن إرادته وحدها كل شئ ، ولا يمكن أن يجعل الله هذه القوة لشئ مما خلق ، والا لتعددت الآلهة الخالقة . ومن ثم فإن الإنسان حين يحرك زراعيـة مثلا يفعل هذا بقوة ليست فـى الحق منـه(٣) .

ومن ناحية أخرى فإن الغزالى لا يرى تناقضا بين العقل والشرع ويؤكد على أهمية الجمع بين العلوم العقلية والشرعية فيقول فى إحيائه "وظن من يظن أن العلوم العقلية مناقضة للعلوم الشرعية وأن الجمع بينهما غير ممكن ، وهو ظن صادر عن عمى فى عين البصيرة . . فالداعى إلى فحص التقليد مع عزل العقل بالكلية جاهل ، والمكتفى بمجرد العقل عن أنوار القرآن والسنه مغرور . فإياك أن تكون من أحد الفريقين ، وكن جامعا بين الأصلين ، فان العلوم العقلية كالأغذية ، والعلوم الشرعية كالأدوية (٤) .

(١) تهافت الفلاسفة للغزالى صفحة ٢٧٨ .
(٢) عن الدكتور محمد يوسف موسى رحمه الله فى كتابه «بين الدين والفلسفة ص ١٩٤ . نقلا عن تاريخ الفلسفة الحديثة بالفرنسية لهوفدنج .
(٣) المرجع السابق صفحة ١٩٤ .
(٤) إحياء علوم الدين للغزالى ص ٣٠ .

ثانيا : اصناف الطالبين عند الغزالى

١- الغزالى . . وعلم الكلام :

أراد الغزالى أن يبحث عن الحقيقة عند الفرق المختلفة فهولاء هم السالكون سبل الحق فأسرع بتتبع واستقراء ما عند هذه الفرق فابتدأ بالمتكلمين وثنى بالفلاسفة وثلث بالباطنية وربع بالصوفية .

وعن مقصود علم الكلام يقول الغزالى " صادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وإنما مقصوده حفظ عقيدة أهل السنة على أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة .

يقصد الغزالى أن مقصود علم الكلام هو حفظ العقيدة على مسلم أخذ مبادئه من القرآن والسنّه أى حفظهما من كل شكوك يضعها أعداء الإسلام حول مبادئ وأصول الدين . . هذا هو مقصود علم الكلام فهو علم لا يعتقد بصحة قضاياه إلا المؤمن بعقائده اصلا .

أما مقصود الغزالى فقد كان إدراك قواعد الدين ادراكا يقينيا واضحا يستند إلى العقل "وهذا قليل النفع فى حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئا أصلا ، فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ، ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا "

ويقول الغزالى عن علماء الكلام (وكان أكثر خضوعهم فى استخراج متناقضات الخصوم ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم) .

وكان الغزالى موضوعيا فى تفكيره حين قال "فلم يكن الكلام فى حقى كافيا ولا لدائى الذى كنت أشكوه شافيا . نعم : لما نشأتْ صنعة الكلام وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة الذب عن السنة بالبحث عن حقائق الأمور وخاضوا فى البحث عن الجواهر والأعراض وأحكامها ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحو بالكلية

ظلمات الحيرة في اختلافات الخلق ولا أبعد ان يكون قد حصل ذلك لغيرى بل لست أشك فى حصول ذلك لطائفة ولكن حصولا مشوبا بالتقليد فى بعض الأمور التى ليست من الأوليات والفرض الآن حكايه حالى ، لا الإنكار على من استشفى به فإن ادوية الشفاء تختلف باختلاف الداء وكم من دواء ينتفع به مريض ويتضرر به آخر .

ومن زاوية أخري فإن الغزالى يعرف قيمة علم الكلام ويعده من العلوم التى هى لباب وجواهر . لاعلوم القشور . فقد قسم الغزالى في كتابه «جواهر القرآن» العلوم الى علوم هى قشور وعلوم هى لباب . ومن العلوم القشور عنده النحو . وقسم علوم اللباب طبقتين ، أحدهما أقل قيمة من الاخرى ، وقسم الاقل قيمة إلى ثلاثة جعل القسم الثانى هو محاجة الكفار ومجادلتهم ، ومنه يتشعب علم الكلام قال :(١) (المقصود لرد الضلالات والبدع ، وازالة الشبهات ، ويتكفل به المتكلمون ، وهذا العلم قد شرحناه على طبقتين سمينا الطبقة القريبة منها «الرسالة القدسية» والطبقة التى فوقها «الاقتصادفي الاعتقاد »).

ومقصود هذا العلم حراسة عقيدة العوام من تشويش المبتدعة .

وطبعى أن هذا يعنى أن الغزالى يعرف دور علم الكلام في الدفاع عن العقيدة امام المبتدعة كما انه اعتبره من علوم اللباب لاعلوم القشور . وقد ألف كتب كلامية متعددة من أهمها : «الاقتصاد في الاعتقاد » و «الدرة الفاخرة».

ويتضح من ذلك أن الغزالى كان موضوعيا مع نفسه فهو مع ذلك انه قد ألف فى علم الكلام فأنه يعترف بأنه غير واف موضوعه كما انه لاينكر على من استفاد به فقد ينتفع بالدواء مريض ويستضربه آخر.

ولا غرو فى ذلك فقد كان الغزالى خبيرا بعلم الكلام يعرف سائر مسائله ومدى منفعته يقول فى إحيائه «وأما منفعته فقد يظن أن فائدته

(١) جواهر القرآن للغزالى ص ٢١ .

كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه(١) ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء بهذا المطلب الشريف ولعل التخبيط والتضليل فيه اكثرمن الكشف والتعريف ، وهذا اذا سمعته من محدث او حشوى ، ربما خطر ببالك أن الناس اعداء ماجهلوا ، فاسمع هذا ممن خبر الكلام ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلمين وجاوز ذلك إلى التعمق فى علوم أخر تناسب نوع الكلام ، وتحقق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود » .

وقد أخذ الغزالى على علماء الكلام عدة اشياء فقال :

«إن حاصل ما يشتمل عليه الكلام من الأدلة التى ينتفع بها ، ويشتمل عليها القرآن والأخبار ، وما خرج عنهما فهو محاولة مذمومة وهى من البدع وإما مشاغبة «مخاصمة» بالتعلق بمناقضات الفرق لها ، وتطويل بنقل المقالات التى أكثرها ترهات ، وهذيانات تزدريها الطباع ، وتمجها الأسماع ، وبعضها خوض فيما يتعلق بالدين ولم يكن شئ منه مألوفا فى العصر الاول ، وكان الخوض فيه بالكلية من البدع» . وضرب الغزالى لذلك مثلا :

فقال : «إن معرفة الله وصفاته وأفعاله لا تحصل من علم الكلام ، بل يكاد يكون الكلام حجابا عليه ومانعا منه ، وانما الوصول اليه بالمجاهدة» .

وفى كتابه "إلجام العوام عن علم الكلام" أنكر الغزالى على عوام الناس أن يشتغلوا بعلم الكلام ، وقال أن دين عوام الناس ينبغى أن يكون صافيا نقيا بعيدا عن تعقيدات الجدليين والمتكلمين ولهذا ينبغى إلجام العوام عن علم الكلام وهذا ما أكده أيضا فى فيصل التفرقة .

يقول الغزالى : إذا تركنا المداهنة ومراقبة الجانب ، صرحنا بأن الخوض فى «الكلام» حرام لكثرة الآفة فيه إلا لأحد شخصين : رجل

(١) الإحياء ص ١٩٨ .

وقعت له شبهة ليست تزول عن قلبه بكلام قريب وعظى ولا بخير نقلى ، والشخص الثانى كامل العقل راسخ القدم فى الدين ثابت الايمان بأنوار اليقين ، يريد أن يحصل هذه الصفة ليداوى بها مريضا إذا وقعت له شبهة ، وليفحم بها مبتدعا اذا نبغ وليحرس بها - معتقده إذا قصد مبتدع اغواءه . فإذا حصل هذه الصفة كان ذلك من فرض الكفايات ، والايمان الراسخ على الحقيقة هو ايمان العوام الحاصل في قلوبهم من الصبا بتواتر السماع .. وتمام تأكده بلزوم العبادة والذكر فإن من تمادت به العبادة الى حقيقة التقوى وتطهير القلب من كدورات الدنيا ، وملازمة ذكر الله دائما ، تجلت أنوار المعرفة ، وصارت الأمور التى كان قد أخذها تقليدا عنده كالمعاينة والمشاهدة . و «الكلام» المستفاد من الدليل الكلامى ضعيف جدا ، مشرف على الزوال بكل شبهة»(١) .

هكذا نلاحظ أن الامام الغزالى يقول بأن الايمان عند العوام هو الذى يكون في قلوبهم عن طريق السماع والتواتر وأن كمال هذا الإيمان يكون بكثرة العبادة والذكر حتى تتضح له أنوار المعرفة اليقينية ، ويصير ما أخذه قبل ذلك بالسماع والتواتر والتقليد مشاهدة .

وكان الإمام الغزالى نموذجا للفكر الإسلامى الصحيح ولهذا كشف بجرأة عن التعصب الدينى لدى بعض المتكلمين الذين اتهموا الفرق المخالفة لهم بالكفر والزندقة ونادى بأنه يجب على المسلمين أن يكفوا ألسنتهم عن أهل القبلة ما داموا يؤمنون بأنه لا إله إلا الله محمد رسول الله وغير مناقضين لها .

وقال أنه لا يصح تكفير مسلم لأنه أوّل نصّا دينيا تأويلا يخالف تأويل الآخر وأوضح إلى أن المبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل وضيق الأفق والتعصب المذهبى الأعمى .

وقال الغزالي في فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة من أشد الناس

(١) فيصل التفرقة للغزالى صفحة ٢٠٣ وصفحة ٢٠٤ .

غلوا وإسرافا ، طائفة من المتكلمين كفروا عوام المسلمين وزعموا أن من لايعرف الكلام معرفتنا ، ولم يعرف الأدلة الشرعية بأدلتنا التى حررناها فهو كافر ... فهؤلاء ضيقوا رحمة الله الواسعة على عباده ... وجعلوا الجنة وقفا على شرذمة يسيرة من المتكلمين .. ثم جهلوا ما تواتر من السنة .. .. فليت شعرى :: متى نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ،أو عن الصحابة رضى الله عنهم ، احضار اعرابى أسلم ، وقوله له : الدليل على أن العالم حادث : أنه لا يخلو عن الأعراض وما لا يخلو عن الحوادث حادث .

وأن الله تعالى عالم بعلم ، وقادر بقدرة زائدة على الذات ، لاهى هو ، ولاهى غيره ، الى غير ذلك من رسوم المتكلمين .

... نعم لست أنكر انه يجوز أن يكون ذكر أدلة المتكلمين أحد اسباب الإيمان في حق بعض الناس ولكن ليس ذلك بمقصور عليه ، وهو أيضا نادر ، بل الأنفع الكلام الجارى في معرض الوعظ كما يشتمل عليه القرآن ، فأما الكلام المحرر على وسم المتكلمين فإنه يشعر نفوس المستمعين بأنه فيه صيغة جدل ليعجز عنه العامى ، لالكونه حقا في نفسه ، وربما يكون ذلك سببا لرسوخ العناد في قلبه ، ولذلك لا ترى مجلس مناظرة للمتكلمين ، ولا للفقهاء ينكشف عن واحد انتقل من الاعتزال ، أو من بدعة الى غيره ولاعن مذهب الشافعى الى مذهب أبى حنيفة ، ولا على العكس .. ولذلك لم تجر عادة السلف بالدعوة بهذه المجادلات ، بل شددوا القول على من يخوض في الكلام ويشتغل بالبحث والسؤال»(١) .

لقد بين لنا الغزالى في السابق مدى سعة أفقه واهتمامه بلب الدين وجوهره وروحه ، وكشف لنا عن حقيقة التعصب لدى بعض المتكلمين الذين يهتمون بالتقعرات اللفظية والشكلية بينما جوهر الدين ابسط

(١)فيصل التفرقة للغزالى ص ٢٠٢ وص ٢٠٣ باختصار

وأوضح من هذه الأدلة والبراهين التى يستخدمونها بلا وعى صحيح ، فالدين يهتم بالجوهر لا بالرسم والعرض

وفى فيصل التفرقة أوضح أن أصول الايمان ثلاثة :

الايمان بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، وما عداه ، فروع وأنه لاتكفير في الفروع أصلا إلا في مسألة واحدة ، وهى أن ينكر أصلا دينيا علم من الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق التواتر .

لكن في بعضها تخطئة ، كما في الفقهيات ، وفي بعضها تبديع ، كالخطأ المتعلق بالإمامة وأحوال الصحابة .

ويقول الغزالى «أن الخطأ في أصل الإمامة ، وتعينها وشروطها وما يتعلق به لايوجب شيىء منه تكفيرا .

فقد أنكر ابن كيسان أصل وجوب الإمامة ولايلزم تكفيره .

ولايلتفت إلى قوم يعظمون أمر الإمامة ، ويجعلون الإيمان بالإمام مقرونا بالإيمان بالله ورسوله.

ولا إلى خصومهم المكفرين لهم بمجرد مذهبهم في الإمامة فكل ذلك إسراف إذ ليس في واحد من القولين تكذيب للرسول صلى الله عليه وسلم أصلا ، ومهما وجد التكذيب ، وجب التكفير ، وإن كان في الفروع ....

وأما الاصول الثلاثة . وكل ما لم يحتمل التأويل في نفسه ، وتواتر نقله ولم يتصور أن يقوم برهان على خلافه فمخالفته تكذيب محض.

ومثاله : ما ذكرناه من حشر الأحياء ، والجنة والنار ، وإحاطة علم الله تعالى بتفاصيل الأمور ، وما يتطرق اليه من احتمال التأويل ، ولوبالمجاز - البعيد ، فتنظر فيه إلى البرهان : فإن كان قاطعا ، وجب

القول به .

ولكن إن كان فى إظهاره مع العوام ضرر لقصور فهمهم فإظهاره بدعة .

وإن لم يكن البرهان قطعيا ، لكن يفيد ظنا غالبا ، وكان ذلك لا يعلم ضرورة فى الدين كنفى المعتزلة الرؤية عن الله تعالى ، فهذه بدعة وليس بكفر .

وأما ما يظهر له ضرر ، فيقع فى محل الإجتهاد والنظر ، فيحتمل أن يكفر ويحتمل أن لا يكفر .

ومن جنس ذلك ما يدعيه بعض من يدعى التصوف أنه قد بلغ حالة بينه وبين الله تعالى اسقطت عنه الصلاة ، وأحلت له شرب الخمر والمعاصى ، وأكل مال السلطان .

فهذا ممن لا شك فى وجوب قتله ، وإن كان الحكم بخلوده فى النار محل نظر - وقتل مثل هذا ، أفضل من قتل مائة كافر ، اذ ضرره فى الدين أعظم وينفتح به باب من الإباحة لا ينسد . (١)

هذه هى روح السماحة الدينية الحقة عند حجة الاسلام الإمام الغزالى الذى لا يكفر مسلما شهد أن لا إله الا الله وأن محمداً رسول الله إلا من أنكر أمرا من أمور الدين معلوما بالضرورة كالصلاة والزكاة والصوم و الحج .

وكم أكد الغزالى على رحمة الله الواسعة فقد سبقت رحمته غضبه ، فقد جاء فى حديث (أول ما خط الله فى الكتاب الاول : انا الله ، لا إله الا أنا ، سبقت رحمتى غضبى ، فمن شهد أن لا اله الا الله وأن محمدا عبده ورسوله فله الجنة) :

---

(١) فيصل التفرقة للغزالى صفحة ١٩٥ : ١٩٧ باختصار .

٢ - الغزالى والفلسفة :

بعد معرفة الغزالى بحقيقة علم الكلام ، ولى شطره ناحية الفلسفة عله يجد فيها غلته فأخذ يعب منها عبا حتى استطاع أن يعرف حقيقة الفلسفة ، وآفاتها وغائلتها وقسم الفلاسفة إلى ثلاثة اقسام :

الدهريون : أصحاب القول بقدم العالم وهؤلاء زنادقة ملاحدة .

والطبيعيون : وهم الذين أكثروا بحثهم فى الطبيعة وعالم الحيوان والنبات وتشريح الحيوانات فرأوا عجائب صنع الله ، ولكنهم ذهبوا الى القول بأن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الاخرة وأنكروا الحشر والحساب ولهذا انهمكوا فى الشهوات نتيجة انكارهم الجنة والنار وهؤلاء زنادقة ايضا .

والإلهيون : وهم المتأخرون منهم مثل: سقراط وأفلاطون وأرسطو ويرى الغزالى انحراف فكرهم فوجب عنده تفكيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الاسلاميين كابن سينا والفارابى .

وبعد ذلك يحدثنا الغزالى عن اقسام علومهم ويقسمها الى ستة أقسام :

رياضية : تتعلق بعلم الحساب والهندسة والفلك ، وهى علوم برهانية دقيقة ولعل دقة براهينها حملت البعض على حسن الاعتقاد فى الفلاسفة .

منطقية : وهى تختص بالنظر فى طرق الأدلة والقياس وشروط مقدمات البرهان وهو القياس المؤلف من اليقينيات وكيفية تركيب مقدمات البرهان وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه وان العلم اما تصور (وهو ادراك الماهية بدون أن يحكم عليها بنفى أو اثبات) وسبيل معرفته الحد ، وإما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وعلوم الفلاسفة المنطقية ليس فيها ما ينبغى أن ينكر لأنه لا يتعلق بها شئ من الدين ،

بل قد تفيدنا فى معرفة صحيح الفكر من فاسده .

وأما علم الطبيعيات : فهو بحث فى العالم وما يحتويه من سموات وأرض وأجسام مركبة كالحيوان والنبات والمعادن ، وليس من شرط الدين انكار علم الطبيعة .

وأما السياسيات : فكلام الفلاسفة فيه يرجع إلى مصالح الناس الخاصة بأمورهم الدنيا .

وأما الخلقية : فجميع كلامهم فيها يرجع الى حصر صفات النفس واخلاقها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، ويرى أنهم أخذوها من الصوفية .

وأما الالهيات : ففيها كما يقول الغزالى أكثر أغاليطهم وقد كفرهم فى كتابه التهافت فى مسائل ثلاث ، وبدّعهم فى سبعة عشر مسألة . فكفرهم فى قولهم ان الاجساد لا تحشر ، وان الله لا يعلم الجزئيات ، وقولهم بقدم العالم وأزليته . (١)

---

(١) ليس كل فلاسفة الإسلام يقولون بحدوث العالم وليس كل فلاسفة الإسلام يقولون بقدم العالم فالكندى فى رسالته فى وحدانية الله وتناهى جرم العالم يقول إن العالم حادث "فليس الزمان متصلا مما لا نهاية له ، بل من نهاية اضطرارا ، فليست مدة الجرم بلا نهاية ، وانية الجرم متناهية ، فيمتنع أن يكون جرم لم يزل ، فالجرم إذن محدث اضطرارا ، والمحدث محدث المحدث إذن المحدث والمحدث من المضاف فلكل محدث اضطرارا عن ليس .

وهذا يعنى تناهى الجسم والتناهى يؤدى إلى القول بأن العالم مخلوق من العدم ولهذا فهو يقول بحدوث العالم لا قدمه .

وفكرة تناهى الأجسام قال بها المعتزلة قبل الكندى عندما أرادوا البرهنة على حدوث العالم .

ولما كان الجرم متناهيا عند الكندى فإن الزمان يكون بدوره متناه "لأنه يقوم على الحركة المتناهية .

ويعتبر الكندى أول فيلسوف مسلم قال بحدوث العالم بينما الفارابى وابن سينا قالا بالفيض فى خلق العالم متأثران بنظرية الفيض عند أفلوطين غير أن افلوطين يقول بعقل واحد بينما الفارابى وابن سينا يقولان بعشرة عقول ، وتسعة أنفس ، والقول بالفيض يرتب عليه القول بقدم العالم .

ومن مفكرى الإسلام الذين تصدوا لمن قالوا بقدم العالم ابن حزم الأندلسى (ت ٤٥٦) حيث رد على من قالوا بأن العالم قديم وله فاعل يعتبر علة له وهو الله تعالى فيقول فى الفصل ان =

ويقول الغزالى فى منقذه «وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم أنه عليم بالذات لا بعلم زائد عن الذات وما يجرى مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك» .

ويبدو لنا الغزالى متسامحا نزيها حين يقرر أن لكثير من هذه العلوم فوائد لعدم منافاتها للدين ويقول أيضا فإذا كان ذلك معقولا فى نفسه مؤيدا بالبرهان ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلم ينبغى أن يهجر ويترك ؟ .

فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرفنا إلى أن نهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرا من الحق .

أما بالنسبة لتكفير الفلاسفة فى مسألتى قدم العالم وأن علم الله اقتصر على الكليات دون الجزئيات فقد تناول الغزالى حين مناقشتها فى التهافت مناقشة فلسفية مسألة الزمان والمكان ولم يجعل بينهما فرقا كالفلاسفة ، إذ هما عنده عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا ، بينما الفلاسفة يرون أن للعالم نهاية وأن المكان محدود ، ومن ناحية أخرى يقولون أن الزمان لا ابتداء له ولا انتهاء .

ويقول الغزالى فى تهافته «كما ان البعد المكانى تابع للجسم فالبعد الزمانى تابع للحركة ، وهو امتداد للحركة ، كما أن ذاك امتداد اقطار الجسم .. فلا فرق بين البعد الزمانى الذى تنقسم العبارة عنه ، عن الإضافة إلى «قبل» «وبعد» وبين البعد المكانى الذى تنقسم العبارة عنه ، عن الإضافة الى فوق وتحت» .

ومن ذلك النص نلاحظ أن الغزالى لم يجعل بين الزمان والمكان فرقا

= المعقول هو المتنقل من العدم إلى الوجود ، بمعنى من ليس إلى شئ ، فهذا هو المحدث . ومعنى المحدَث هو مالم يكن ثم كان . وهم يقولون أنه هو الذى لم يزل ، وهذا خلاف المعقول .

كما يرى فلاسفة ، فالزمان والمكان عبارة عن العلاقات بين تصوراتنا أو هما العلاقة بين الاجسام .

وهذا الرأى يجعل الغزالى قريبا من نظرية «كانت» التى يقول فيها : إن الزمان والمكان ليسا من المعانى الكلية ، بل هما عبارة عن صور سابقة للتجربة تستعين بها على إدراك العالم الخارجي

والغزالى الذى هاجم الفلسفة يعد عندنا فيلسوفا دينيا كبيرا لأنه كتب فى سائر موضوعات الفلسفة الدينية بعمق وأصالة وتجديد .

والموضوعات التى تخص فلسفة الدين يقول عنها فرجيليوس فيوم Vergilius Ferm فى تعريفه لفلسفة الدين إن فلسفة الدين بحث فى موضوع الدين من الناحية الفلسفية .. ومن مسائلها طبيعة الدين ، ووظيفته وقيمته ، صدق دعواه ، الدين والاخلاق .. صلة الله بالانسان من حيث الحرية والمسئولية ، الكشف الصوفى ، الصلاة واستجابة الدعاء ، قيمة الصور التقليدية فى التعليم والشعائر والعقائد والطقوس والوعظ ، مسألة طبيعة الاعتقاد والإيمان ، مسألة الالوهية ووجودها .. وإن موضوع فلسفة الدين فى نظر الدوائر المحافظة ليس موضوعا لبحث فلسفى حر وانما هو فلسفة دين معين ، إنه حينئذ دفاع صريح أو مقنع عن دين سبق الايمان به .

ومن هذا المنطلق لتعريف فلسفة الدين نجد أن الغزالى تناول فى دراسته كل موضوعات الفلسفة الدينية ولا ننسى أن مرجع وأساس اهتمامات الغزالى كان مشكلة فلسفية عميقة هى محاولته الكشف عن قضية اليقين فى المعرفة يقول الغزالى فى منقذه «فظهر لى أن العلم اليقينى هو الذى ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب ولا يقارنه إمكان الخطأ والوهم ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الأمان من الخطأ ينبغى أن يكون مقارنا لليقين » .

وقد وجد اليقين فى الحقيقة الصوفية وإن اليقين نور يقذفه الله فى الصدر وهذا النور هو مفتاح اكثر المعارف فى نظره ، وهذا موقف فلسفى بديع يجعلنا نقول عنه - بلا ادنى شك - أنه فيلسوف دينى أصيل .

ولقد استطاع الغزالى أن يبين لنا أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح ، وليس مجرد أحكام شرعية أو عقائد تلقى ، بل هو أكثر من ذلك ؟ هو شئ يحسه المتدين بروحه إحساسا حيا ولا يحس كل إنسان بروحه ما يحس به الغزالى ، والذين لا يستطيعون متابعته اذ يعرج ، على أجنحة التصوف فى مدارج السالكين متخطيا حدود المعارف التى يمكن اكتسابها بالتحصيل العادى لا محيص لهم عن الإقرار بأن محاولاته فى الوصول الى الله ، مهما كان فيها من مقامرة فى ميادين المجهول ، ليست أقل شانا فى تاريخ العقل الإنسانى من مسالك فلاسفة عصره وإن بدت هذه المسالك أدنى إلى اليقين لأن اصحابها إنما ساروا فى بلاد قد كشفها غيرهم من قبل . (١)

والغزالى حين اراد أن يقوض الآراء الخاطئة فى الفلسفة إنما اراد هدمها ليبنى قواعد الدين ويقيمه على اسس من الحق قوية صحيحة .

وقد وضع الغزالى كتابه تهافت الفلاسفة ليهدم الفلسفة بمعول مفكر كبير ناقد ، له بصيرة ودربة بأراء الفلاسفة فأخذ يفتش عن الثغرات فى آرائهم بعين فاحصة وعقل حكيم وما كان هدفه هدم آراء الفلاسفة فى ذاتها لان بعض هذه الاراء موافق للدين وانما كانت بغيته تفنيد مسلكهم العقلى وبيان مدى تهافتهم فمقصوده كما يقول فى تهافته تنبيه من حسن اعتقاده فى الفلاسفة وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ، ببيان وجوه تهافتهم .

إنه يريد أن يبين للناس أن المعرفة عند الفلاسفة العقليين مصدرها

(١) تاريخ الفلسفة فى الإسلام صفحة ٣٥٥ وصفحة ٣٥٦ تأليف دى بور ترجمة د.أبو ريدة

العقل مع أن هناك طورا أخر فوق العقل لم ينتبه اليه الفلاسفة العقليون هو طور البصيرة ومع أن الغزالى اعتمد على العقل فى هدمه افكار الفلاسفة إلا أنه استطاع ان يكشف عن قدرات أعظم من العقل فى الكشف عن الحقائق هى قدرة البصيرة عند الخاصة من الناس ، كما كشف لنا بعمق حقيقة هامة هى أن العقل لا يستطيع أن يصل إلى مساتير الغيب وأنه عاجز عن أن يدرك ما وراء الطبيعة .

ثم أن هناك هدفا آخر من محاولته بيان تهافت الفلاسفة وهو قصده هدم الفلسفة عند العامة من الناس أيضا حتى لا يفتنوا بأراء الفلاسفة ويغتروا بما يهرفون ، فحاول هدمها وبيان الخطأ فى بعض أرائها حتى لا يقبل العامة عليها والأخذ بأفكارها .

ولقد اتسم الغزالى فى نقده الفلاسفة بالنزاهة العلمية والبعد عن التعصب لرأيه ، وكان يريد البحث عن الحقيقة فى جوهر آرائهم وبين مدى الخطل والخطأ فيها .. يقول بلاسيوس : أن الغزالى حينما سمى كتابه «تهافت الفلاسفة» كان يريد ان يمثل لنا أن العقل الانسانى يبحث عن الحقيقة ويريد الوصول إليها ، كما يبحث البعوض على ضوء النهار ، فإذا أبصر شعاعا يشبه نور الحقيقة انخدع به فرمى نفسه عليه ، وتهافت فيه ، ولكنه يخطئ مخدوعا بأقيسة منطقية خاطئة فيهلك كما يهلك البعوض .

فكأن الغزالى يريد أن يقول ان الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا اليها بلا إعمال روية فتهافتوا وهلكوا الهلاك الابدى (١)

ولعل الذى دعاه الى بيان تهافت الفلاسفة ما وجده من تناقض فى آرائهم بعضهم البعض فيقول لنا فى تهافته لقد رد ارسطا طاليس على كل من قبله ، حتى على أستاذه الملقب بأفلاطون الالهى ، ثم اعتذر عن

(١) تاريخ الفلسفة الإسلامية تأليف دى بور ترجمة د. أبو ريدة طبعة ٥ هامش صفحة ٣٢٣ .

مخالفة استاذه انه قال : افلاطون صديق ، والحق صديق ، ولكن الحق أصدق منه - وانما نقلنا هذه الحكاية ليعلم أنه لا تثبيت ولا ايقان لمذهبهم عندهم وأنهم يحكمون بظن وتخمين من غير تحقيق ويقين .

إن تناقض المذاهب وعدم يقينية آرائها دفع الغزالى الى هدمها ونقدها نقدا نزيها .

وقد سلك فى ذلك مسلك المفكرين المدركين لحقيقة المسألة التى يبحثونها - تمام الادراك . فهو عندى من العبقريات النادرة فى التاريخ الانسانى .

بل يعد الغزالى فى رأينا - كما ذكرنا من قبل - رغم أنه هاجم الفلسفة - فيلسوفا دينيا من الدرجة الاولى ... وقد ظهر ذلك واضحا جليا فى كتابه التهافت .. فحين شكك فى بعض آراء الفلاسفة وفندها ونقدها نقدا علميا وموضوعيا صحيحا فإنه قام بعمل فلسفى بعقلية ثاقبة وكأنه تفلسف رغما عنه ، ويرى بعض الفلاسفة أن (وظيفة الفلسفة لا تقوم فى وضع حلول للمشكلات) بل تقوم فى تفنيد الحلول الموضوعية للمشكلات (١)

ويقول أستاذنا الدكتور سليمان دنيا رحمه الله معلقا على هذا الرأى (٢) ومن عدم الانصاف ان يعتبر التشكيك والنقد اعمالا سلبية عديمة الفائدة انهما - فيما اعتقد (أى الدكتور سليمان دنيا) اعمال تساعد على بناء وتشييد من نوع آخر .فلو أن شخصا اعتقد ان طريقا معينة يمكن أن توصل الى الحق فكشف له انسان عن نقص فى هذه الطريق وأظهر له مثالبها وعيوبها ، فإن ذلك الانسان يكون قد صرف ذلك الشخص عن باطل ، ونبه الى ضرورة البحث عن طرق أخرى عساها تكون أليق بالغرض المطلوب .

(١) أسس الفلسفة للدكتور توفيق الطويل ص ١٢٦ طبعة ثانية .

(٢) فى مقدمة تحقيقه الرائع لكتاب تهافت الفلاسفة ط ٥ ص ٢٣ .

ان ارسطو حينما زيف نظرية المثل الافلاطونية ، لم يكن عمله هذا - وهو هدم لشئ يسمى فلسفة - عملا سلبيا ، وإن عمله هذا كان خطوة تمهيدية لابد منها للوصول الى نظريته الجديدة التى ملأ بها فراغ النظرية التى استبعدها ، إذ لو لم ينقد نظرية المثل الافلاطونية - بل آمن بها - لم يكن هناك سبيل لكشف نظرية أخرى تحل محلها .

واذا كان النقد داخلا هكذا ، فى نطاق الفلسفة فكتاب التهافت - إذن فلسفة .

ويحاول الدكتور دنيا رحمه الله أن يبين لنا أن الغزالى كان فيلسوفا بحق وهو يهدم الفلسفة فيقول (١) نعم ان هدف كتاب التهافت هو إظهار العقل بمظهر العاجز عن اقتناص الحقائق الالهية .

ولهذا يحاول الغزالى فيه أن ينتزع ثقة الناس من العقل كمصدر تتعرف منه المسائل الالهية ، ولكن الغزالى إذ يحاول ، تقييد سلطة العقل ، يتخذ من العقل نفسه مطية للوصول الى هذه الغاية ، فإذن عمله هذا هو محاولة عقلية لإثبات قصور العقل فى ميدان الالهيات ، وشهادة عقلية بأن للعقل حدا يجب الوقوف عنده .

فمن نظر الى الغاية من كتاب التهافت -.تلك التى يصورها الغزالى نفسه بأنها انتزاع الثقة من الفلسفة - ورآه ، لهذا بعيدا من نطاق الفلسفة فهو - مضطر الى اعتبار وسيلته - تلك التى تقوم على استعراض مناهج الفلاسفة وادلتهم واستخدام العقل وحده للكشف عن قصورها ، وضعفها وركتها - عملا داخلا فى صميم الفلسفة . إنه عمل يمكن تصويره بأنه بحث فى طاقة العقل . وهل يمكن ان يكون عمل كهذا بعيداً عن مجال الفلسفة ؟

(١) المرجع السابق صفحة ٢٤ .

ولقد قال ارسطو قديما :

إن من ينكر الميتافيزيقا ،يتفلسف ميتا فيزيقيا

وقال :

(فَلْنتفلْسَف إذا اقتضى الأمر ان نتفلسف ، فإذا لم يقتض الامر التفلسف وجب أن نتفلسف لنثبت أن التفلسف لا ضرورة لـ ـــه).

ولقد قال حديثا بعض الفلاسفة الميتا فيزقيين عن خصومهم من الفلاسفة الوضعيين :

(انهم الفلاسفة الذين يفاخرون بأنهم ليسوا فلاسفة إن موقفهم من إنكار الفلسفة موقف فلسفى لامحالة)

وعلى هذا القياس يكون الغزالى قد تفلسف وهو يهدم الفلسفة ، فالتهافت - اذن - ان لم يكن فلسفى الغاية فهو فلسفى الموضوع.

والحقيقة أن الغزالى يمثل عقلية الفيلسوف المسلم وإن قراءاتة فى الفلسفة بعمق صبغت أفكاره بعقلية فلسفية متميزه ويحضرنى فى ذلك ما قاله ابو بكربن العربى صاحب الغزالى العظيم «شيخنا ابو حامد دخل فى بطون الفلاسفة ثم اراد ان يخرج منهم فما قدر» (١)

ويبدو لنا أن الغزالى فى فترة من حياته قد استوعب سائر المراجع والكتب المعروفة فى الفلسفةفى عصره ومنها كتاب «حجج برقلس فى قدم العالم» ولعل الغزالى وهو يفند أراء الفلاسفة فى المسائل الثلاثة المشهورة اعتمد على شرح يحى النحوى النصرانى على مذهب ارسطو . وقد رد النحوى على القول بقدم العالم ردا على برقلس أحد القائلين بقدم العالم .

(١) نقض المنطق لابن تيمية ص ٥٦ . طبعة القاهرة ١٩٥١ .

يقول البيهقى(١) فى كلامه عن يحيى النحوى "وأكثر ما أورده الإمام حجة الإسلام رحمه الله فى تهافت الفلاسفة تقرير كلام يحى النحوى" .

ويذكر هذا الكلام أيضا الشهر زورى "فى نزهة الارواح"(٢)

ويقول أن الغزالى أخذ ما أورده فى التهافت من كتب يحى النحوى وهو يذكر من كتب يحى الكتاب الذى رد فيه على برقلس .

ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى (٣) إن الغزالى فى هذا الكتاب إنما يعتمد على كتاب لفيلسوف يونانى افلاطونى محدث هو برقلس الافلاطونى ورد يحى النحوى عليه . وهذا الكتاب هو كتاب حجج برقلس فى قدم العالم الذى كان من حسن حظنا أن اكتشفنا له ترجمة عربية قديمة قام بها اسحاق ابن حنين ونشرناها فى كتابنا «الافلاطونية المحدثة عند العرب» ص ٣٤ - ص ٤٢ القاهرة سنة ١٩٥٥ وقد وجدنا فيه الحجة الاولى من هذه الحجج . وقد فقدت فى أصلها اليونانى ، ولم تبق لنا إلا فى هذه الترجمة العربية الفريدة ، وهذه مأثرة عظيمة من مآثر التراث العربى على التراث اليونانى وهذه الحجج الثمانى عشر قد رد عليها يحيى النحوى الفيلسوف الاسكندرى ، بكتاب كبير ، يثبت فيه بأن العالم محدث وليس قديما ، وهذا الرد قد ترجم إلى العربية إذ ذكر القفطى أنه كانت لديه نسخة بالعربية طبعا من رد يحيى النحوى (القفطى نشره لبيرت ص ٨٩) . كما أننا نجد البيرونى فى كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة) ينقل عن كتاب يحيى النحوى هذا فى ثلاثة مواضع (صفحات ١٧ و ١١١ و ١١٤) وكذلك يذكره الشهر ستانى فى

(١) فى كتاب تاريخ حكماء الإسلام (تتمة اليتيمة) مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٦٦٦م ص ١٧ نقلاً عن هامش ص ٣٣١ بتاريخ الفلسفة فى الإسلام لديبور ترجمة وتعليق د/ أبو ريدة .

(٢) نزهة الأرواح مصور بمكتبة جامعة القاهرة ص ١٨٢ ، ص ١٨٣ .

(٣) فى بحثه بمؤتمر دمشق صفحة ٢٢٣ وصفحة ٢٢٤ .

«الملل والنحل» (طبعة كيورتن ، ص ٣٣٣٨ – ٣٤٣) – فيورد ما سماه باسم «شبه برقلس فى قدم العالم» ويقول أنه أفرد كتابا للرد عليها فضلا عن ابن الخمار المتوفى بعد سنة ٤٠٧ هـ فقد دافع عن رد يحيى النحوى برسالة صغيرة فى أن دليل يحيى النحوى على حدث العالم أولى بالقبول من دليل المتكلمين أصلا – وقد عثرنا على هذه الرسالة ونشرناها أيضا ، وهذا يدل على مدى انتشار حجج برقلس ورد يحيى النحوى عليها فى العالم الاسلامى فمن الطبيعي جدا ان يعرف الغزالى حجج برقلس ورد يحيى النحوى ، ولئن كان الغزالى لم يذكر اسم برقلس ولا اسم يحيى النحوى فى كتابه «تهافت الفلاسفة» فإن هذا لا يدل على شئ لأن الغزالى لا يذكر مصادره وخصوصا هنا يعنيه أن يخفى مصدره لانه يحيى النحوى ويحيى النحوى فيلسوف على أنه يكفى المرء أن يقرأ كتاب يحيى النحوى فى رده على برقلس فى قوله بقدم العالم ليكتشف فى الحال أن الغزالى ينقل خلاصة ما قاله يحيى النحوى فى رده ، ولا يكاد يضيف شيئا جوهريا إليه ، انما الخلاف فى العبارات والاصطلاحات وطريقة صياغة الحجاج .

فالحجة الاولى يوردها الغزالى (ص ٢٣ من نشرة بويج ، بيروت سنة ١٩٢٧) وهى قول القائلين بقدم العالم انه يستحيل صدور حادث من قديم مطلقا هذه الحجة هى الحجة الثالثة من حجج برقلس ، وقد رد عليها يحيى النحوى بمثل ما أورده الغزالى باعتراضاته والزاماته والردود على الاعتراضات والإلزامات والحجة الثانية (ص٥١ – ٥٢) من حجج القائلين بقدم الدهر – وهى الخاصة باستحالة التقدم بالزمان – هى بعينها الحجة الخامسة من حجج برقلس وقد رد عليها النحوى بما سيقوله الغزالى أيضا ، والدليل الثالث عند الغزالى (ص٦٦ – ٦٧) يناظر الحجة الثانية من حجج برقلس ، وان اختلفت العبارة إذ بدأت فكرة الممكن والواجب تدخل في الإلهيات بدلا من المثال والممثول أو الصورة وشبيهها المحاكى .

وبالمثل يقال عما أورده الغزالى للفلاسفة من حجج على أبدية العالم والزمان والحركة فلها كلها نظائرها في حجج برقلس ، خصوصا السابعة والثامنة والتاسعة ، وما أورده يحيى النحوى من ردود عليها .

ومن هذا نرى بوضوح أن الغزالى في «التهافت» إنما رد على أراء بعض الفلاسفة بأراء البعض الاخر ، وبعبارة أدق نراه رد على المشائيين ومن شابههم مثل أبرقلس ، بكلام استعاره من فيلسوف تأثر بأفلاطون اكثر مما تأثر بأرسطو في الالهيات ، فضلا عن أنه فيلسوف ذو دين ونعني به يحيى النحوى الذى كتب رده هذا سنة ٥٢٩ ميلادية كما يظهر من نص كلامه في المقالة ١٦ف٤ (ص٥٧٩ س١٤من نشرة Raabe)

ومن ذلك كله نستطيع أن نقول مطمئنين أن الغزالى اعتمد في رده على الفلاسفة القائلين بقدم العالم على كتاب يحيي النحوى وفيه دليله على أن حدوث العالم أولى بالقبول من حجج برقلس فى قدم العالم .

والحق أن إسقاطات قراءاته في الفلسفة وخاصة فلسفة ابن سينا قد ظهر واضحا في أمرين تناولهما في فكره وهما مسألة النفس ومسألة المعرفة الإشراقية المتصلة بمسألة الفيض .

فالغزالى يكاد يحذو حذو ابن سينا في أمر النفس فهو يرى بأنها جوهر مخالف للجسم كما أخذ عنه أهم براهين إثبات وجود النفس كالبرهان الطبيعى وبرهان الإستمرار وبرهان الرجل الطائر وبرهان ابن سينا العقلى فى إثبات روحانيتها .

أما نظرية الفيض التى رفضها الإمام الغزالى في كتاب «تهافت الفلاسفة» فإننا نجد بصماتها واضحة في كتابى «فيصل التفرقة» «ومشكاة الأنوار»،فالغزالى مثلا في «مشكاة الأنوار» يرى أن النفس مقتبسة من اخر العقول التى يحتوى عليها عالم الملكوت ، كذلك يري أن أنوار المعرفة تفيض على عقول البشر فبالحَرِيّ كما يقول في مشكاة الأنوار «أن يكون مقتبس الأرواح الأرضية من الأرواح العلوية

التى وصفها على وابن العباس رضى الله عنهما فقالا ، ان لله ملكا له سبعون وجه وفى كل وجه سبعون ألف فم وفي كل فم ألف لسان يسبح الله بجميعها ».

وتجد في مشكاة الأنوار أنه يقول بأن أرواح الملائكة يفيض بعضها عن بعض وأن لها مقامات متدرجة ، تنتهى إلى نور الأنوار وهو الله وحده لا شريك له ، وهو النور الحقيقى وحده ، وكل الانوار مستعارة منه .

ولاشك عندنا أن قراءاته لفلاسفة الإسلام ووعيه بالفكر الفلسفى كانت له رواسب لا شعورية في كتاباته جعلته يحذو حذو الفلاسفة الذين نقدهم في تهافته ثم إن نظرية الفيض في عصره كانت مثارة باستمرار وكانت قد اختمرت تماما افكارها وعششت في عقول كثير ممن اطلعوا على هذه النظرية .

واننا نلاحظ أن الغزالى في «معارج القدس» و«المشكاة» و«الرسالة اللدنية» قد تأثر بالفكر الاشراقى ونظرية الفيض وقد وجدنا هذه الأفكار عند ابن سينا في رسالته «النبوات»حيث فسر الوحى والنبوة من خلال نظرية الفيض .

فابن سينا في رسالة النبوات يرى أن الوحى «إفاضة العقل الكلى على نفس النبى الذى ينتهى إليه التفاضل في الصور المادية وفيضان العلوم منه على لوح قلب النبى بواسطة العقل الفعال والملك المقرب هو كلامه ،والرسالة هى ما قيل من الأمور المفاضة على نفس النبى المسماه وحيا، على أي عبارة استصوبت لصلاح عالمى البقاء والفساد علما وسياسة .. والرسول هو المبلغ ما استفاده من الإفاضة المسماه وحيا ».

ولهذا فنحن لا نشك في أن الغزالى قد تأثر الى حد كبير بنظرية الفيض وبالفلسفة الإسماعيلية وفلسفة ابن سينا وبخاصة من خلال رسالة الشيخ الرئيس عن «النبوات» بل إن الغزالى في الرسالة اللدنية يستخدم

ألفاظا استخدمها من قبله «إخوان الصفا» وفلاسفة الاسلام وبخاصة ابن سينا مثل تعبيرات «النفس الكلية» «العقل الكلى» «النفس القدسية» فالعقل الكلى هو المعلم والنفس القدسية هى المتعلم ، والنفس الكلى هو العلم ، وصور المعلومات تنتقش على صفحة النفس القدسية بدون واسطة ولاتعلم من خارج ، يقول تعالى «وعلمناه من لدنا علما »وقدتعلم أدم من غير معلم ، وهذا علم الأنبياء الذين يأخذون عن الله مباشرة بلاتوسط ولاوسيلة . والعلم الغيبى الآتى عن الوحى أقوى وأكمل من العلوم المستفادة ، وصار علم الوحى كما يقول الغزالى إرثا للنبوة وحقا للرسل . ثم اغلق هذا الباب بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، وان كان علمه أكمل وأتم وأشرف ، لانه حصل عن التعلم الربانى وعلمه شديد القوى .

والعلم الحاصل بالوحى سمى علما نبويا أما الحاصل بالإلهام فيسمى علما لدنيا ، فمن إفاضة العقل الكلى يتولى الوحى ، ومن إشراق النفس الكلية يتولد الإلهام فالوحى حلية الإنبياء ، والالهام حلية الاولياء .

والنفس دون العقل وانولى دون النبى والإلهام دون الوحى .

الحق ان بذور الفكر الاشراقى ونظرية الفيض تبدو واضحة - كما قلنا فى بعض كتابات الإمام الغزالى وبخاصة الرسالة الدينية والمشكاة ويبدو لنا ان ما يقرأه الإنسان بعمق ونهم عظيمين تظل آثاره داخل عقله ويظهر دون أن يدرى فى بعض كتاباته . وهذا ما حدث مع شيخنا العظيم الإمام الغزالى .

فإن كانت بعض آرائه تجنح إلى الاتحاد فى "مشكاة الأنوار" إلا أن "إحياء علوم الدين" يعد المصدر الأساسى للتصوف السنى وهو الكتاب الهام الذى أثر فى سائر المتصوفين السنيين فيما بعد وهو المرجع والمعتمد فى التصوف السنى وفيه يهدم بعنف نظرية الاتحاد عند الحلاج .

ولهذا فالغزالى يعد بحق رائد التصوف السنى فى فكرنا الإسلامى

٣- الغزالى . . ومذهب التعليمية الباطنية

بعد أن فرغ الغزالى من علم الفلسفة وبيانه انه غير واف بغرضه لأن العقل ليس مستقلا بالإحاطة بجميع المطالب استغرق فى التعرف على التعليمية عقيده الإسماعيلية فوجد أنهم يقولون (ان العقل لا يؤمن عليه الغلط ، حكما يصح أخذ حقائق الدين عنه) .

وهذا ما وصل إليه الغزالى عند اختباره الفلاسفة لكن التعليمية يأخذون مسائل الدين فى شكلها اليقينى عن طريق المعلم الإمام المعصوم الذى يتلقى قضاياه عن الله .

يقول الغزالى فى المنقذ من الضلال "ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم . فإذا قالوا هو ميت . فنقول "فمعلمكم غائب" . فإذا قالوا : "معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد ، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو أشكل عليهم مشكل فيقول "ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وأكمل التعليم" ، إذا قال الله تعالى "اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى" . وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم ، كما لا يضر غيبته .

هكذا ناقشهم الإمام الغزالى وحاورهم حوارا عقليا رائعا إنهم يقولون أن الامام المعصوم يتلقى عن الله مباشرة ولكن حين سألهم عنه قالوا إن الامام المعصوم فى الخفاء . فبقى قول الإسماعيلية : "كيف تحكمون فيما لم تسمعوه ؟ أبالنص ولم تسمعوه ؟ آم بالاجتهاد والرأى وهو مظنة الخلاف ؟ فنقول : نفعل ما فعله معاذ إذ بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص ،

وبالاجتهاد عند عدمه .

وبين لهم ان الرسول صلى الله عليه وسلم أباح الاجتهاد فيما لا نص فيه من كتاب وسنة . وقد بين الغزالى فساد مذهب التعليمية والباطنية فى أكثر من رسالة وكتاب .مثل كتاب "المستظهرى" وكتاب "حجة الحق" وكتاب "الدَّرج" المرقوم بالجداول و"القسطاس المستقيم" .

ويقول الغزالى فى المنقذ من الضلال "إن هؤلاء ، ليس معهم شئ من الشفاء المنجى من ظلمات الاراء ، بل هم مع عجزهم عن إقامة البرهان على تعيين الإمام ، طالما جاريناهم فَصَدَّقناهم فى الحاجة إلى التعليم ، وإلى المعلم المعصوم ، وأنه الذى عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذى تعلموه من هذا المعصوم ، وعرضنا عليهم إشكالات فلم يفهموها فضلا عن القيام بحلها ، فلما عجزوا أحالوا على الإمام المعصوم ، وقالوا : "إنه لابد من السفر إليه .

والعجب أنهم ضيعوا عمرهم فى طلب المعلم ، وفى التبجح بالظفر به ولم يتعلموا منه شيئا أصلا .

وهم فى البحث عن المعلم المعصوم مخدوعون فلا حقيقة له فى الظاهر . يقول الغزالى "فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم أيضا" .

وهكذا فند الغزالى آراء التعليمية وبين خطأ اساس معتقداتهم وضلال معتقداتهم فى الإمام المعصوم اذ لا معصوم سوى الأنبياء عليهم السلام .

لقد دَرَس حجة الاسلام علم الكلام والفلسفة وأراء التعليمية بعمق ليعرف عن علم ودراية الحقيقة فهو كما أشار فى المنقذ أنه "لا يقف على فساد نوع من العلوم من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوى أعلمهم فى أصل ذلك العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة ، وحين يتم له ذلك يمكن

أن يكون ما يدعيه من فساده حقا .

وهكذا انتهى به الأمر الى معرفة حقيقة الفرقة الرابعة وهى الصوفية .

٤- الغزالى والصوفية

الفرقة الرابعة وهى فرقة الصوفية ، منهجهم الذوق ، وحين عاشرهم الغزالى وجدهم أحسن الناس أخلاقا وأطيبهم عشرة ووجد عندهم اليقين الذى كان يبحث عنه كما سنوضح ذلك بإذن الله .

وقد بدأ الغزالى بمعرفة علمهم من خلال كتب التصوف مثل "قوت القلوب فى معاملة المحبوب" لابى طالب المكى ، والرعاية لحقوق الله عز وجل للمحاسبى ، والمتفرقات المأثورة عن أقطاب التصوف مثل الجنيد والشبلى والبسطامى وغيرهم .

ويقول الغزالى فى منقذه من الضلال عن الصوفية "إنى علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم ازكى الأخلاق ، بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم وأخلاقهم ، ويبدلوا بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، فى ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ، فماذا يقول القائلون فى طريقة طهارتها . وهى اول شروطها – تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى ، ومفتاحها الجارى منها مجرى التحريم من الصلاة استغراق القلب بالكلية بذكر الله ، وأخرها الفناء بالكليه فى الله" .

لقد ذاق الغزالى تجربة التصوف عن خبرة وممارسة ، وحين مارسها تجرد لها عن متع الحياة الزائلة ، وعرف أنه لا يستطيع أن يحكم على تجربة التصوف إلا من جرب أو ذاق وعرف فقال فى المنقذ "وهذه حالة يتحققها بالذوق من سلك سبيلها ، فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، إنْ اكثر معهم الصحبة حتى يعرف ذلك بقرائن الأحوال يقينا ، ومن جالسهم استفاد منهم هذا الإيمان ، فهم القوم لا يشقى جليسهم ، ومن لم يرزق صحبتهم فليعلم إمكان ذلك يقينا بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه فى كتاب "عجائب القلب ، من كتب إحياء علوم الدين" .

والتحقيق بالبرهان علم ، وملابسة عين تلك الحالة ذوق ، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن إيمان . فهذه ثلاث درجات ، "يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات" .

ولعل الذى جعله يتجه إلى التصوف بكليته أنه بدأ حياته العلمية لدى رجل صوفى هو الذى كفله وتربى على يديه مع أخيه أحمد ، بالإضافة إلى اطلاعه على كتب الصوفية ثم نوبة المرض الذى انتابته جعلته يشعر أن لا ملجأ إلا إليه سبحانه وتعالى فاتجه اليه بكليته خالصا صادقا فى حبه لله وزهده عن اعراض الدنيا .

وأيضا كان من أساتذة الغزالى الصوفى الزاهد ابا على الفضل ابن محمد بن على الفَارمَذِىّ الطوسى[1] . وقد أخذ الغزالى عليه الطريق وعرف منه جواهر التصوف وحقيقة الحياة الروحية فى الإسلام .

ويوضح لنا الغزالى فى المنقذ أن أخص خواص الصوفية هو الذوق ولا يمكن الوصول إليه بالتعلم المجرد لأن الذوق فى اصطلاح الصوفية كما يقول هو "نور عرفانى" يقذفه الحق بتجليه فى قلوب أوليائه فيفرقون

---

(١) توفى الفارمذى سنة ٤٧٧ بطوس .وكان من تلاميذ الإمام القشيرى صاحب الرسالة القشيرية .

به بين الحق والباطل ، بغير حاجة إلى الاعتماد على كتاب أو نحوه ، كما يُدْرك بالحال ، وهى عند الصوفية ، معنًى يرد على القلب من غير تصنع ولا اجتلاب ، ولا اكتساب ، من طرب أو حزن ، أوقبض أو بسط ويزول الحال بظهور صفات النفس ، فإذا دام وصار ملكة ، سمى مقاما ، فالأحوال مذاهب والمقامات مكاسب ، والأولى تأتى من عين الجود ، والثانية ببذل المجهود ، وأن لا سبيل إلى بلوغ هذه الخواص بغير العمل المقترن بالعلم" .

إذن لقد تخلص الغزالى من الشك وعرف الحقيقة . . يقول لنا الغزالى "وكان قد ظهر عندي أن لا طمع لى فى السعادة الاخرة . إلا بالتقوى وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله قطع علاقة القلب عن الدنيا ، بالتجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى ، وإن ذلك لا يتم إلا بالإغراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعوائق" .

ورسم لنا الغزالى تمام الطريق الصوفى بقوله "ان تخلو بنفسك فى زاويه ، تقتصر من العبادة على الفرائض والرواتب وتجلس فارغ القلب ، مجموع الهم ، مقبلا بذكرك على الله ، وذلك فى أول الأمر بأن تواظب باللسان على ذكر اله تعالى فلا تزال تقول : الله الله ، مع حضور القلب وادراكه ، الى ان تنتهى إلى حالة لو تركت تحريك اللسان لرأيت كأن الكلمة جارية على لسانك لكثرة اعتياده ، ثم تصير مواظبا عليه ، إلى أن لا يبقى فى قلبك إلا معنى اللفظ ، ولا يخطر ببالك حروف اللفظ وهيئات الكلمة ، بها يبقى المعنى المجرد حاضرا فى قلبك على اللزوم والدوام ، ولك اختيار إلى هذا الحد فقط ولا اختيار بعد ذلك ، إلا فى الاستدامة لدفع الوساوس الصارفة ، ثم ينقطع اختيارك فلا يبقى لك إلا الانتظار لما يظهر من فتوح ظهر مثله للأولياء . . . فهذا منهج الصوفية وقد رد الأمر فيه إلى تطهير محض من جانبك وتصفية وجلاء ، ثم استعداد وانتظار فقط" .

وهكذا انتهى الغزالى إلى أن الكشف الصوفى أو الإلهام هو أبرز مصادر المعرفة اليقينية بعد الوحى . وهو عطاء يفيض به الله تعالى على قلب الصوفى العارف إذا ما كان العارف يملك الاستعداد لهذا الكشف الوهبى العظيم . وهذه المعرفة القلبية الكشفية تكون مصحوبه ببرد اليقين ، ونور اليقين عند المؤمنين والراسخين فى العلم ، وهذا النور الفياض يغمر القلب فيتضح معه كل شئ "وهذا النور من الوضوح بحيث أنه قد يخفى لشدة جلاته ، وقد يغفل عنه العارف لإشراق ضيائه" .

فعن طريق الكشف الصوفى أو الإلهام يكون العلم اليقينى وهو الذى قال عنه الغزالى - انه ينكشف فيه المعلوم انكشافا لا يبقى معه ريب .

وتصوف الغزالى يمثل التصوف السنى فى الاسلام ، فلقد رفض نظريات الحلول والاتحاد عند الحلاج التى نتج عنها فيما بعد فكرة وحدة الوجود عند ابن عربى فى القرن السابع الهجرى ، وبين الغزالى ان العبد عبد والرب رب ، ولن يكون أو يصير أحدهما الآخر البته .

ويقول الغزالى "إن من طلب غيره (اى غير الله) فقد عبده" (١) .

ورفض الغزالى رفضا تاما فكرة ان الله روح العالم أو أنه العالم فيذكر عند بسط فكرة ان الله خلق آدم على صورته : "إن أدم أنموذج ولا يخلو إلا نموذج عن محاكاة لما هو أنموذج عنه ، فالروح الإنسانى يحاكى الله فى ذاته وصفاته وأفعاله فهو يدبر البدن كما يدبر الله العالم ، والجسم الإنسانى عالم صغير فى مقابلة العالم الكبير . . كل جزء منهما له نظير فى الآخر . . . هل الله روح العالم ؟ كلا أما الدليل فهو أن الله خلق العالم بإرادته واختياره وهو الحافظ له ، والقادر على افنائه باختياره وإرادته ، وإلا لما كان هناك معنى للخلق ولا للاختيار ولا للإرادة (٢) .

(١) إحياء علوم الدين جـ ١ ص ٢٢ .
(٢) المنقذ ص ٤٤ ، ص ٤٥ .

إن الغزالى يريد أن يؤكد على حقيقة طالما أشار إليها وهى أن العبد عبد والرب رب .

ويحاول الغزالى من منطلق التسامح الذى اتسم به مع الصوفية أن يعتذر عن شطحات بعضهم فيقول :

"فليس للعارف أن يزعم إدراك الذات الإلهيه فضلا عن أن يزعم الاتحاد بها أو حلولها فيه ، وإذا كانت المشاهدة أسمى مرتبة من الاستدلال ، فإنها ليست كشفا تاما يزول معه كل حجاب ، وإذا وجدنا متصوفا يدعى الحق (يقصد الحلاج) وجب تأويل قوله : اما على أنه يعترف بأن لا وجود له إلا بالحق ، وهذا التأويل منه بعيد لان اللفظ لا ينبئ به ، ولأن كل شئ سوى الحق فهو بالحق ، واما على ان صاحب الذوق يغفل عن ذاته فيكون همه الحق وحده بحيث لا يكون فيه متسع لغيره ، ويقول الغزالى إن هذا التأويل العقلى وحده هو الذى يمكننا من تفسير وفهم شطحات الصوفية "لان من يستغرق شئ فينسيه كل شئ سواه يجوز له لا على سبيل الحقيقة أن يقول أنه هو هو" (١) .

والغزالى يريد أن يعتذر عن شطحات الصوفية لأن ما يقولونه مجرد وهم وليس بالحقيقة أبدا . . ويوضح لنا الغزالى ان المتصوفة الخلص من المسلمين لم يذهبوا فى التعبير عن استغراقهم التام فى الحق إلى حد القول بالحلول والاتحاد . والذين يزعمون أن ما يقولونه هو الحقيقة فهو باطل وهو مجرد استغراقات أو نوع من القرب "يكاد يتخيل منه طائفة الحلول وطائفة الاتحاد وطائفة الاتصال وكل ذلك خطأ" ، فالله يتجلى ظاهرا من جهة افعاله ، ولكنه يظل باطنا لشدة ظهوره ، وعندئذ لا يظهر إلا للعقل لا للحواس ، واذا فهم الذوق هذا الفهم لم يكن هناك ما يدعو العقل لإنكاره . . فإن من ليس له قدم راسخة فى المعقولات ربما لم يميز أحدهما عن الآخر فينظر إلى كمال ذاته وقد تزين بما تلألاء فيه من حليه

(١) كيمياء السعادة ٨٧ ، ٨٨ .

الحق ، فيظن أنه هو فيقول أنه الحق .

ويوضح لنا الغزالى مصدر القول بالحلول فيقول ان مصدره المسيحية (إنه آى الحلول لا يتصور بين عبدين فكيف يتصور بين العبد والرب والعبد عبد والرب رب . . أليس معنى الحلول هو انطباق جوهر على جوهر أو جسم على جسم أو عنصر في جوهر) وهذا يستحيل عقلا نسبته إلى الصلة بين الذات الإلهية . . ونفس العارف "مهما بلغت هذه النفس من الصفاء ، والتجرد عن كل ما يشغلها عن الحق ، ثم اذا كانت النفس حادثة ولا وجود لها إلا بإرادة خالقها ، فكيف يتصور عقلا أن تكون هى هو .

وإذا نحن سلمنا بإمكان ذلك بالنسبة إلى نفس واحده ، فكيف لا نسلم به لجميع النفوس ، وعندئذ يصبح العالم كلة آلهه . فمن المحال إذن أن يحل الله فى النفوس أو أن ينطبع فيها انطباع الخمر فى اللبن فان ذلك من صفات الأجسام (١) .

وينفى الغزالى فكرة الاتحاد ويهدمها من أساسها هدما عقليا عن طريق القسمة الجدلية التى تبرهن على استحالة كل حالة منها فيخرج بنتيجة كبرى هى أن الاتحاد بين ذاتين أمر مستحيل لان العقل لا يمكن ان يقبله . . لانه فى حالة الاتحاد بين ذاتين "اما أن تظل كل منهما قائمة بنفسها وإذن فليس هنا اتحاد . ومثال ذلك أن الإرادة والعلم والقدرة توجد فى ذات واحدة ، ولكنها ليست متحدة ، لأنه يبقى من المقرر أن الأرادة غير العلم غير القدرة . وإما أن يقال ربما تفنى إحدى الذاتين وتظل الأخرى موجودة وهذا باطل" . فلا يمكن فى هذين الاحتمالين الحديث عن أى نوع من الاتحاد لأنه لا يمكن ان يحدث اتحاد بين موجود ومعدوم . اما الاحتمال الثالث وهو القول بانعدام الذاتين معا فهو فاسد من أساسه لأن حديثنا هنا عن الانعدام ، وليس حديثا عن

(١) المقصد الاسنى للغزالى

الاتحاد .

وعن طريق القسمة الجدلية يصل بنا الغزالى الى هذه النتيجة الهامة وهى "أصل الإتحاد إذن باطل وحيث يطلق الاتحاد ويقال : هو هو ، لا يكون الا بطريق التوسع والتجوز اللائق بعادة الصوفية والشعراء ".

ومن ثم ينبغى علينا أن نؤول ما نسب مثلا إلى أبى يزيد البسطامى من أنه قال : "سبحانى ما أعظم شأنى" فنقول أنه يتلفظ بهذه العبارات ليعبر بها عن عظمة الله وجلاله ، مثلما ينطق المرء بقوله تعالى "لا إله إلا انا فاعبدنى "فليس من المعقول أن يقول هذه الألفاظ متصوف طالبا من الناس أن يعبدوه .

هذا ويمكن تأويل قول البسطامى "سبحانى ما أعظم شانى" تأويلا آخر وهو أنه فى حالة المشاهدة شاهد جمالا وكمالا فى نفسه . فقال عن قدس نفسه سبحانى ، كما شاهد عظم شأنه بالنسبة للآخرين فقال "ما أعظم شانى" مع الأعتراف بالفرق الجوهرى بينه وبين قدس الله تعالى وعظم شأنه سبحانه وتعالى . ثم أنه لم يقل مثل هذه العبارة إلا وهو فى حالة جذب ووجد وسكر ، لا فى حالة صحو .

ويؤكد الغزالى على أنه من المهم للغاية أن يحفظ الصوفى لسانه فى حال صحوه ولا يتلفظ بمثل هذه العبارات الموهمه بالإتحاد الموحية بالمماثلة بين الله تعالى والعبد .

يقول الغزالى فى المقصد الأسنى "ومن صدق بمثل هذا المحال فقد انخلع عن غريزة العقل ، ولم يتميز عنده ما يعلم عما لا يعلم ، ومن لم يفرق بين ما أحاله العقل وبين ما لا يناله العقل فهو أخس من أن يخاطب فليترك وجهله ومن ذلك كله نستطيع ان نقول إن تصوف الغزالى كان يمثل التصوف السنى فى الاسلام" .

وبعد . .

فلازلت أردد قول القائل "إنى رأيت أنه لا يكتب أحد كتابا فى

يومه إلا قال فى غده ، لو غير هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يُسْتَحْسَنْ ، ولو قُدِّم هذا لكان أفضل ، ولو تُرك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العِبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر ".

ثم يبقى أن : أحمدك ربىّ كثيرا على سابغ نعمائك وعطاياك علىّ ، وإنى أسألك الهداية والتوفيق . وأسألك الشكر على العافية والغنَى عن الناس وأسألك الجنة يارب العالمين . . وأسألك قبول هذا العمَل وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم . وأسألك الشهادة فى سبيلك والموت فى المدينة المنورة فقد روى البخارى أن عمر قال «اللهم ارزقنى شهادة فى سبيلك ، واجعل موتى فى حرم رسولك الأمين» اللهم آمين .

وختاما : فإن كنت قد وفقت فلله تعالى المنّة والشكر ، وإن أكن قصرت فإن الكمال لله وحده ، ومِنه أستمد العونَ لدركِ ما فاتنى ، وهو الموفق والهادى سواء السبيل"

العبد الفقير الى الله تعالى

عامر النجار

فهرست موضوع الكتاب

من مؤلفات الدكتور عامر النجار

- الطهارة فى الإسلام طبعة ثالثة دار المعارف بالقاهرة
- الطرق الصوفية فى مصر طبعة رابعة دار المعارف بالقاهرة
- التصوف النفسى طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- فى تاريخ الطب فى الدولة الإسلامية طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة
- الخوارج . . عقيدة . . وفكرا . . وفلسفة طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة
- علم الكلام طبعة أولى دار المعارف بالقاهرة
- نظرات . . فى فكر الغزالى طبعة أولى نشر "الصفا" بالقاهرة
- كتاب الصلاة طبعة ثانية دار المعارف بالقاهرة

تحت الطبع

- الإباضية . . عقيدة . . وفكرا . . وفلسفة .
- الزكاة فى الإسلام .